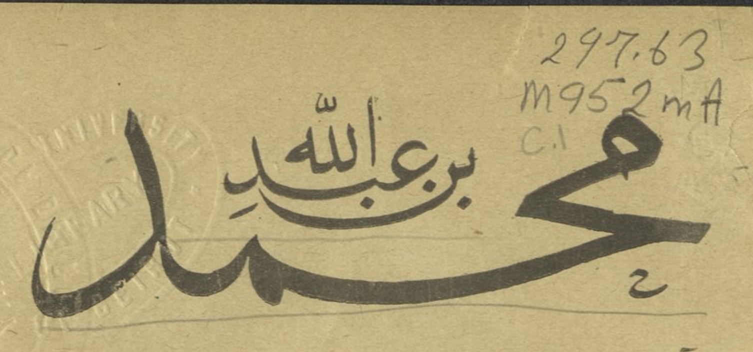


محمد بن عبد الله

وآراء مشاهير كتاب الغرب : في رسالته ؛ ونبوته ؛ والاسلام

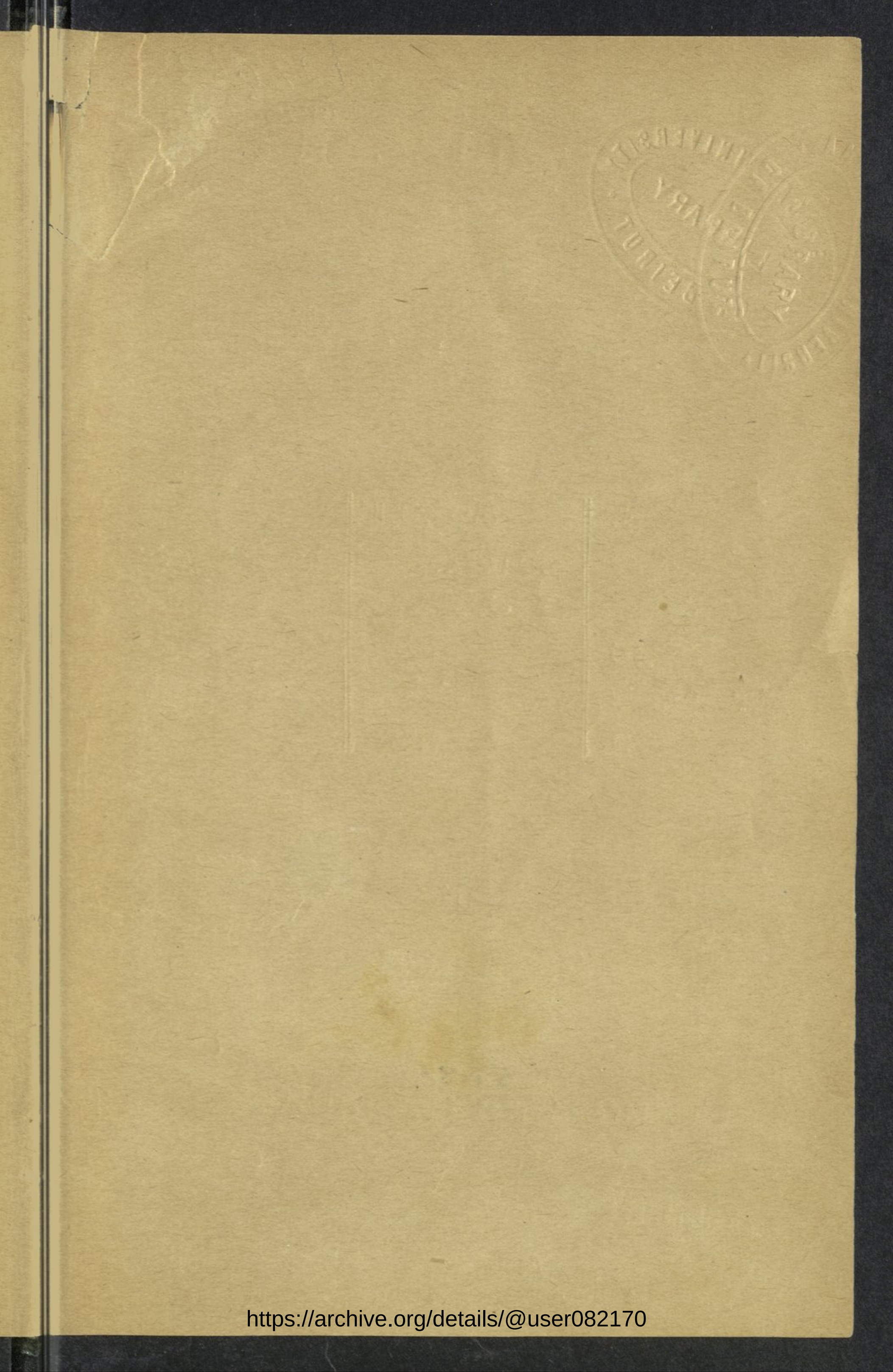
مونته	البرنس كيتاني	ولز
دوزي	جيوفاني بورغيز	نولد كه
شبرنغر	ماكس مايرهوف	مرجوليوث
غريم	كارليل	زويمر
هوار	جيلمان	برتلمي سانت هيليار
غولدسهير	درمنغهم	ديسون

تعريب

عمر أبو النصر

الطبعة الاولى — سنة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

مطبعة الوفاء · بيروت



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المعرب

الحمد لله ، والصلاة والسلام على خير انبيائه ، وبعد فان الوفاء لمحمد بن عبد الله صلوات الله عليه ، والحرص على ان لانترك شاردة ولا واردة إلا احصيناها عن اعماله ونشأته ، وآثره ، ونبوته ودعوته ، تحفزنا على نشر هذا الكتاب الجديد الذي تكلفنا اختياره من غير كتاب واحد ، لمشاهير كتاب الغرب ، وعظماء مؤرخيه ومؤلفيه ، كما ان التقدير الذي نشاهده من القراء ، والانتشار الذي تصادفه هذه المؤلفات ، يدفعنا على المضي فيها حتى نصل الى ارضى اماني المخلصين والمثقفين من شباب العرب ، الذين

يرون في تعزيز الجدة الاسلامية العربية ظاهرة لها خطورتها واثرها ، في هذه النهضة الجديدة ، التي نريدها شامخة الانف ، مستقلة الرأي ، رفيعة الاغراض ...

ولشد ما يسرني ان اوفق في تصوير هذه الماضيات النبوية تصويراً طريفاً مارحاً ، يحفز شباب العرب الى العناية بها ، والاستمتاع بهذه الروائع من تاريخهم السالف ، وامجادهم الغابرة

ولو انني خيرت لاخترت موضوعاً يعرض لغير هذا ، ولكنه الوفاء لمحمد وما يطرفنا به الغرب بين حين وآخر من بحث عن نبوته وتقدير لعظمته ، واكبار لدعوته ، خصوصاً وقد كان بعض كتاب الغرب لسنوات خلت ، وحين يحاولون التأريخ للاسلام والمسلمين يعتذرون لقرائهم ، ان عرضوا لهذا البحث ، وان راحوا يؤرخون لمحمد وجماعته البرابرة المتوحشين ، اعداء المسيحية واعداء الحقيقة الالهية ، وقد ذهب بعضهم يروّج لعمله هذا في شيء كثير من الرقة واللباقة ، وان كان ليس ينكر نكر ما اقدم عليه ، وسوء ما تكلفه ، فقال :

« ان الافرنسيين قد تعودوا دراسة التاريخ الروماني ، وكان هؤلاء اعداء للمسيحية ايضاً ، فلن يجدوا والحالة هذه غضاضة في دراسة التاريخ العربي الاسلامي ، خصوصاً وقد اظهر المسلمون في فتوحاتهم الاولى انهم اكثر (مسيحية) من الرومانيين في معاملتهم

للامم التي غلبوا عليها ، وتمكنوا من امصارها واوطانها »[١] اما (جيلمان) الكاتب الانكليزي المعاصر فانه يقول انه ليس يجد سبيلا الى هذا الاعتذار — في الاعصر الحاضرة — لمن يتقدم للكتابة عن محمد والاسلام وما في تاريخ محمد والاسلام من حوادث رائعة ، وفتوحات عظيمة ، وعبقرية موفورة ، وفضيلة بارزة ظاهرة

....

ومن المؤكد ان رغبتي هذه ليست ترجع عن هذا البحث الى استهانة مني بامره مع جليل قدره ، وعظيم خطره ، وجلال موضوعه ولكني ما ازال احس بان الاحسان فيه ما يزال بعيداً قصياً ، وانت لا تستطيع ان تكتب عن محمد كما تكتب عن غيره من الناس ، وان توفق الى بحثه كما تبحث سواه من عباقرة البشر وافذاذ العالم ، ان فيه سحراً غريباً اكاد لا افهم كنهه ، وان كنت احسه واشعر به ، فهو يتعالى في السمو ابداً ما اتصلت قراءة تاريخه بالمرء كرة بعد كرة ، وما علقت باخباره تجلوها ، وتبحثها وتدرسها وتعاودها بالقراءة والمطالعة متنقلا في مختلف نواحيها ، متذوقاً جمالها في تباين صوره واختلاف اوضاعه

وكيف لانسان بالغة ما بلغت قدرته ، ان يعبر عن جمال لا

---

(١) المسيو بيير فانتير مستشار الدوق دورليان وطبيبه في كتابه عن الخلفاء المسلمين وحياتهم واعمالهم

يصل اليه الا بمقدار ، وما يبرح يحس انه في غير متناوله وان ما
يصل اليه ، انما هو نذر يسير منه

....

ولقد حاول كتاب الغرب في السنوات المتأخرة بحث تاريخ
الرسول بحثاً متعانقاً معتدلا ، فرأينا ان نعرض لابحاثهم هذه ، وان
نتناول آرائهم بشيء كثير من القصد ، ليخرج كتابنا هذا مصوراً
لرأي الغرب المثقف المعتدل الصادق البعيد عن الاهواء في محمد
ورسالة محمد ، ونظن اننا وفقنا في ذلك الى اقصى ما يدخل في طوقنا
من تبيان على ما نعتقد ، ونظن اننا نحسن صنعاً اذا ذهبنا نصور ناحية
من حياة الرسول الاولى وفاقاً لهذه البحوث الغربية في النقد التاريخي
الجديد ، على ان نعرض بعدها لما كتبه كارليل ودرمنغهم وديسون
وجيلمان وغيرهم في محمد ورسالته ونبوته ، نسوّى هذه الصور
الجديدة الغربية بيانا متناسقاً ، واضح التبيان ، رائع الطرافة ، قد
انتظم له جلال الموضوع وخطر الالهام

بيروت ٢٥ ربيع الاول ١٣٥٤
٢٥ تموز ١٩٣٥

تمهيد

محمد بن عبدالله

نحن في عصور الجاهلية ، وفي مساء من هذه الاعصر ، وقد خلعت مكة يوماً صائفاً قائظاً محرقاً ، واستقبلت ليلاً رطباً ثقيلا والشمس قد انتهت الى مستقرها او كادت ، واشراف مكة قد انتظموا مجلساً حول الكعبة يأخذون باطراف الحديث آنا ، ويتكلفون الصمت حيناً ، و كل منهم يتعجل لاوبة الى منزله لعله يتبرد فيه من قسوة الحر وشدة القيظ .

وجلس عبد المطلب بن هاشم زعيم قريش و كبير مكة بين اهله وولده وهم كثر ، وقد ملك من حوله انقباض جعلهم يخلون بين الشيخ ونفسه ، فلا يتحدثون اليه الا بمقدار ، ولا يحاورونه الا على قدر ، والشيخ مثقل مكدور يفكر في آمنة زوج عبدالله الذي كان احب بنيه اليه واقربهم الى قلبه ، والذي لن تخلع زوجه ليلها هذا الا وقد ادت الى الارض مولوداً جديداً

ويعود الشيخ بالذكرى الى حاضره ، وسابقات اعوامه ، فيطلق بصره الى مكة الضاحكة البهجة الفخورة ، بما نالته من فوز على ابرهة وجيشه وهو الذي اراد اقتحام مكة وهدم الكعبة ، و كيف

أرسل الله هذا الطير الغريب الشكل الذي صرفه عن امره ورده عن غرضه ، وامعن في جيشه تقتيلا وابلاماً وعذاباً ، وكيف ملأ قومه من الفخر من انخذال عدوهم وارتداده مدحوراً كاسفاً ، وكيف ان شيخاً من مكة لم يشغله هذا الفخر ، ولم يعرفه مرح الناس وحوارهم من حوله عن هذا الالم الصامت الذي كان يتسلل الى قلبه ، وكيف ان امرأة من قريش كانت تشارك هذا الشيخ في حزنه والمه ، فاما الشيخ فكان عبد المطلب بن هاشم ، واما السيدة فكانت آمنة زوج عبدالله بن عبد المطلب

لقد طوى الردى عبدالله فاحزن ذلك الشيخ وارّقه ، وافضى اليه بشيء كثير من القلق والاضطراب ، وزاد في حزن الشيخ ان يخطف الموت فتاه وهو ما يزال عروساً جديداً ، غادر زوجه بعد بنائه بها بايام في تجارة الى الشام على ان يعود اليها كما يعود الناس الى ازواجهم ، ولكن رفاقه يعودون وهو لا يعود ، وانما يتخلف عنهم في يثرب ليموت عند اخواله من بني النجار ، وقد عرفت زوجه بعد ان ارتحل عنها ، انه قد حملها امانة ما زالت تحس بها في جوانحها حتى اذا جاء امر الله ادت هذه الامانة ، ومن يدري لعل عبدالله لم يوجد الا ليودع هذه الامانة عند زوجه ، ولعل آمنة لم توجد في هذه الدنيا الا لتؤدي هذه الامانة الى الناس

ولقد استقبلت آمنة الرزء الفادح بشيء كثير من الايمان

والسكون ، وراحت تنام على الحطب القاصم هادئة مستسلمة ، وقد القي في روعها ان الايام قد وفتها حظها من الغبطة ، وقسطها من النعيم في هذا الوقت القصير الذي قضته مع زوجها ؛ وراحت تحاول ان تعد التفكير في هذا الجنين الذي كانت تحسه يضطرب في احشائها والذي راحت تؤمن مع المؤمنين بانها ما عاشت بعد زوجها الا لتلد هذا الفتى وتؤدي امانة السماء الى الارض

اما هذه الامانة فكانت محمد بن عبدالله

....

ومكة هادئة الهواء شديدة الحر مطمئنة النفس ، ما أحس اهلها بشي ولا القي في روعهم امر ، واذا هم ينصرفون في صباح (الميلاد) الى امورهم ومعاشهم ، واذا عبد المطلب قائم مقامه حول الكعبة وحوله ابناؤه ، فيمشي اليه البشير مسرعاً يحدثه خبر المولود الجديد ، فيهب من مكانه مستبشراً وتغشاه رحمة ورقة ، فيذهب الى حيث يقوم منزل آمنة ، فيحمل المولود بيديه ويطوف به حول الكعبة ، متهلل الوجه ضاحك الثغر بادي الطرب والحبور ...

وبعد فاني لست بمحدث القاريء عن عادة العرب في التماس الرضعاء لاطفالها ، ولا كيف ذهب محمد بن عبدالله الى منازل بني سعد مع مرضعته الجديدة حليمة السعدية ، فليس في هذا كبير امر ، يكفي ان اقول انه لما عاد الى مكة واستوى في السادسة من

عمره اخذ الله والدته من بين يديه ، كما اخذ والده من قبل ، فضم عبد المطلب عندئذ اليتيم اليه ، و كان له محباً وبه مغرماً ، والصبي عليه مدلاً .

....

وتمضي سنتان فيصبح الشيخ ذات يوماً تعباً مثقلاً ، ويلقي في روعه انه زائل ، وانه مفارق مكة فراقاً لا رجوع بعده ، فيدعو بناته اليه ، ويطلب اليهن ان يندبنه ويبكينه كما يبكي ويندب الناس الموتى ، ويلح في ذلك الحاحاً شديـداً ، فيفعلن على كره ، ويأخذن يندبنه ويبكينه ، واذا الشيخ يختلج قليلا قليلا ، واذا العرق يتصبب على جبينه ، واذ الموت يلم به ويغشاه ، فيعلو عندئذ صوت بناته يندبن سيد قريش وزعيم مكة ، واليتيم الصغير محمد بن عبدالله واقف امام فراش جده ، الذي لم يكن يعرف في الحياة سنداً له غيره ، يرى ويسمع ، ويمتلئ قلبه بما يرى ويسمع ، واذا الارتياع يلم به فيشحب وجهه ، ويطير لبه ويضطرب قلبه ، واذا الابتسامة العذبة التي كانت ترقرق على محياه قد ذبلت ، واذا الفتى المارح في كرب ونكر ، واذا دموعه تتساقط على خديه فاذا رفع عماته بصرهن اليه ، الفين امامهن وجهاً جديداً لم يكن لهن به عهد ، واذا اليتيم اشد الجميع اضطرابا وبكاءً وحزناً وشهيقاً ...

لله من دموع اليتيم ما اشدها وأحرها ! هذا محمد ما عرف اباه

ولا اكتحلت عيناه بمرأى امه الا قليلا ، فاذا ما كفله جده وراح يبرّ به ويعطف عليه ، راح يأخذه الموت من بين يديه ، وكأنما السماء تريد اليتم لهذا الفتى حقاً ، فلا تود ان تضطرب حوله عاطفة ، ولا ان تبتسم امامه بشرة راضية ، وهو في ذلك ضعيف ما يملك للاقدار رداً ولا يستطيع لها دفعاً

وكذلك يموت عبد المطلب ، فيكفل اليتيم عمه ابو طالب وقد غلب الصبي الحزن والالم ، فلا يعود يذكر في مقبلات ايامه ، غير والده الذي لم ير له وجهاً ، وسوى امه التي لم تتوفر لها العناية به الا قليلا ، ويذكر جده الذي فارقه منذ زمن قصير ، ثم يطلق بصره الى السماء يطلب منها ملجأ وحامياً ، وهو اليتيم الفريد الغريب .

وكذلك اراد ربك ان يكون محمد يتيما وان يكون فقيراً ، وان يكون معدماً ، حتى اذا جاء امر الله ، وارسله الى الناس نبياً مرسلاً ، ثم مكنه من العربية قاصيها ودانيها عرف قيمة اليتم ، واثم الفقر ، ومشقة العدم ، ولذلك خاطبه ربه في كتابه الكريم فقال :

" فاما اليتيم فلا تقهر ، واما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث "

....

هذه قوافل مكة تجتاز الصحراء العريانة ، وتطوي البيد ، وتركب الرمال ، ومحمد منصرف الى نفسه ، سارح في احلامه ،

باسم لما وفق اليه في هذه السفرة التي ستفتح امامه عينيه آفاقاً جديدة لم يكن له بها علم ولا عهد .

لقد تعلق بعمه ابي طالب ، لما اعتزم هذا تجارة الى بصرى من اعمال الشام ، وراح يسأله في الحاح الصبي واغرائه ، ان يحمله معه وهو ما يزال يضطرب في التاسعة من عمره

ولم ير العم كبير امر في طلبه هذا ، فاخرجه معه وجعله على الابل يعني بها ويرعاها ، فاذا الفتى يحس بالمسؤولية الجديدة ، واذا به يهتز فرحاً لرؤية هذه المفاوز الرملية الرائعة في انقباضها ، واندثار معالم الحياة فيها

لقد قضت القافلة ثلاثين يوماً حتى برزت لها تلك الارض المتحضرة المهذبة الطافحة بآثار الروم والغساسنة ، فلاحت عندئذ لليتيم البيع والمعابد والقصور والقباب ، وانكشفت له ارض ، ازهر فيه النارنج واورق ، والتفت بها الاعناب ومغارس الآس ، فتمايد اليتيم طرباً ، وتنفس الصعداء ، وفتح نفسه المغلقة لجمال الطبيعة ، واستأنس بالنهر يخالط الطبيعة الضاحكة العريانة ، وهزته اعراف الفجر وهي ترعش في الافق ندية عذبة حلوة ، فوقف شاخصاً مبهوتاً . . .

ومد اليتيم يده الى زهرة من هذه الزهور الباسمة مضطربا وجلا

فلما حاذتها انامله استأنس بها ، واستأنست ، فلم يشأ عزوفاً عنها وارتمي على ارضها ، وقد انهكه تعب البداوة ، وبعد الشقة ، واطلق ابو طالب بصره يبحث عن ابن اخيه فاذا هو بين النارنج والآس ، واذا هو حائل اللون ، حائر الطرف ، ظاهر الرزانة ، بادي التفكير فتركه وشأنه ، وقد عوده هذا الصغير مثل هذا الانقباض والابتعاد عن الناس والخلوص بنفسه في عزلة هانئة وادعة لا يحاول الاتصال بالارض ومن في الارض الا على قدر ، وهو ما كان يدهش ابا طالب ويثير هواجسه وتفكيره

وطال مقام القافلة في بصرى اياماً ، صرفها اليتيم بين هذه الجموع الراغدة الرافلة ، مستأنساً بضجيجها ، محاولا تفهم ماحوله من الوان هذه الحضارة الجديدة التي لم يكن له بها عهد ولا صلة

لقد وقف يوماً حيال ضفاف النهر ، وبين منابت الجوز ، ومغارس الآس وقد غلبته نشوة هانئة صرفته عن ما حوله ، لم يفق منها الا حين التف حوله سرب من الصبيان المماريح ، ينظرون الى لباسه العربي ، وجماله الرائع ، وعيونه الساحرة بشيء كثير من الاكبار والاهتمام

وحاذاه غلام من بينهم .. وسأله قائلاً :

— أغساني انت يا فتى ؟

فرفع اليتيم رأسه اليه ، واذا عيناه تفيضان فخاراً وعزاً ، واذا

هو يقول :

— بل عربي ايها الفتى الرفيق

فصفق الفتيان طربا ، وسألوه المرح معهم ،فاعتذر،وحياهم تحية مفعمة بالظرف والكياسة ، وانتحى ناحية الماء الدافق الهادر، ثم ما عتم ان توارى عن الانظار

....

ويعود محمد مع عمه الى مكة .. ويتساءل من يحاول التأريخ لحياته عن اثر هذا الاتصال بالحضارة الرومانية النصرانية في نفسه ، أأرقه واشجاه ان يشهد هذه الارض الزاهية،فيرى ملوكها واقيالها الاعاريب عبدانا لملوك الروم ؟ ، ام احزنه ان لا تستمتع الجزيرة بمثل هذه الحضارة النضرة التي كانت تنعم بها بصرى ومشارف الشام

ام اشجاه عصف النواقيس والاجراس تدعوا الناس الى عبادة رب لم يكن له به عهد قبل يومه هذا ، وهو رب يساوق — كما يظهر — هذه الارباب التي تقوم في مكة، والتي تمثل في هذه الانصاب القائمة في الكعبة وما حول الكعبة

وهل هناك من اختلاف بين رب مكة ورب بصرى والشام واذا كان هناك من اختلاف فاين الحقيقة وما هو سر هذا التباين؟

....

ما كان شأن محمد بين السنة التاسعة من عمره والخامسة والعشرين ؟؟

اما كتب السيرة فانها تتولاك بشيء غريب من الصمت فلا تعرض لحياة اليتيم في هذه الفترة ، الا ان تقول انه كان راعياً للغنم ... فهل كان راعياً للغنم مدى هذه الاعوام العديدة ، ام تبدل رعي الغنم بشيء آخر ؟؟

ولكن ما هذه الشوائع تملاء مكة وشعاب مكة ، عن امانة محمد واستقامته وخلقه واخلاقه ؟ مثل هذه الشوائع لا تخلق ارتجالا ولا تسير بين الناس اذا لم تستبقها اعمال وفضائل ومكارم واخلاق ظاهرة معروفة ملموسة !!

فاين هذه الاعمال واين هذه الفضائل ؟ وهي لا تكون الا ان يتصل صاحبها بالناس اتصالاً وثيقاً ، واذا كان محمد قدذهب يرعى الغنم في فتوته ، فكيف كان باستطاعته ان يتصل بالناس هذا الاتصال الوثيق ، والناس لا يرعون الاغنام في شوارع المدن وازقة البلد ؟ .

الذي اعتقده ان محمداً كان في هذه الفترة يتصل بالناس وباهل مكة خاصة بما كان يكلفه به عمه من تجارة وشراء وعطاء .

وان ما عرفه الناس من امانته وما تحروه من صدقه في المعاملة هو الذي افضى بهم الى الترويج لهذه الظاهرة الخليقة بالتقدير

والاعجاب

وكذلك يشتهر اليتيم في مجالس قومه فيتحدثون عن امانته وحسن خلقه؛ ويتكلفون امتداح ما ينعم به من ظرف وحسن خلق وكريم اعراق، وتستمع خديجة الى هذه الشوائع تملاء مكة فتكلف محمداً الذهاب بتجارة لها الى الشام على ان تعطيه افضل ما تعطي سواه، فيرضى محمد! ويركب رمال الصحراوات الى بصرى ومشارف الشام كرة اخرى.

ويوفق محمد في تجارته، فاذا ما عاد الى مكة تزوج خديجة، واخذت تتسق له حياة عائلية جديدة

ومن المؤكد ان محمداً اخذ يفكر في هذه الفترة، اي بين السنة الخامسة والعشرين والاربعين من عمره — وبعد ان اطمأن الى معاشه ومشربه — تفكيراً جدياً في العوالم التي حوله، والاسرار التي تغمر هذه الارض ومن عليها. واداه تفكيره هذا الى التعبد في غار حراء، يبحث عن الحقيقة ويفكر في اسرار الكون

وبودي لو اوفق الى تصوير هذه الايام يقضيها سيد العرب في في هذا الغار، ولكن احداً من المؤرخين لم يعرض لها، ولا حاول تفسيرها وتصويرها

ولذلك فلا يزال غار حراء سراً من الاسرار ولا يزال تعبد الرسول فيه لغزاً من الغاز الحياة، ونحن اذا اطلقنا الفكر الى هذا الجبل،

وحاولنا تصوير هذه الحياة المحمدية ، فقد لا نكون بعيدين عن الحقيقة اذا ذهبنا نقول ان رسول الله كان يأوي الى الغار ما بين حاشيتي النهار ، نائماً حيناً ومفكراً حيناً اخر ، وان تعبده وهجوده وتقليب بصره في هذه السماوات العليا ، انما كان في الليل ، والقمر مشرق ، والهواء رطب بليل ، والسماء غارقة في انوارها وضيائها ، ومن المؤكد انه كان يغادر الغار ما بين حاشيتي الليل متمشياً على سفح الجبل مولياً وجهه شطر السماء ، كانما هو يحاول الاتصال بها ، والتحدث اليها وما يزال هذا شأنه حتى تلمس اشعة الشمس شعوره المرسلة على جبينه و كتفيه

فاذا كان في الاربعين من عمره ارسله الله بشيراً ونذيراً يحرر الناس من عبودية الاوهام والجهالة ويدعوهم الى عبادة الله الواحد الاحد لا اله الا هو ، وصدع الرسول بامر ربه ، واخذ يحمل على ما في مكة من نظم بالية عتيقة حملة عنيفة لا مواربة فيها ولا هوادة ، فكان يقرع اسماع قومه بما يتنزل عليه من آي القران ناعياً عليهم وثنيتهم المنحطة ، ونظامهم الاجتماعي الفاسد الذي جعلهم شيعا ، وفرقهم الى فقراء واغنياء وسادة وعبيد ، منتقداً تفاخرهم بالاحساب والانساب ، محذراً لهم ان هم اصروا على عتوهم واستكبارهم ان يصيبهم ما اصاب الامم من قبلهم عندما اعرضت عن رسلها ، فحاق بهم العذاب بما كانوا يفعلون .

وليس هنا مجلس التبسط في صمود محمد امام قومه مدافعا عن الحق والوحدة الالهية ، وكيف اوذي برسالته ، وكذب واهين . ونابذه قومه وتذامروا منه ، وحض بعضهم بعضا عليه ، واعرض عنه عامة الناس وتركوه ، وكيف كان نصيب من تبعه من قومه مثل نصيبه ايذاء وايلاما وتعذيبا ، ثم ما وفق اليه بعد ذلك من توحيد العربية وتحرير العرب ، وخلقهم خلقا جديداً ، ابدل مصالح التاريخ وغير وجه العالم .

هذا باب من اضخم ابواب تاريخ العرب والاسلام نتجاهله ، لا اقوله عمداً ، وانما دلالا ونسيانا ، فلو قرعناه كرة بعد كرة ، لاطربنا ما فيه من امجاد ومفاخر ، ولهزنا ما نشاهده من فتوح وانتصارات ولاثارنا ما نرى على اديمه من دماء الاجداد ، هذه الدماء التي لا يعرف احد صحابها ، ولا يذكر اربابها ، وهم الذين كانوا لاجيال خلت ملء السمع ملء البصر

واما نحن فان علينا واجبا مقدسا ، هو هذه السالفات الضخمة الفخمة من الاعوام ، نعيدها امراً منظوراً ، ونسيرها في التاريخ الحديث شيئاً واقعا

١

محمد النبي

بقلم الفيلسوف الانكليزي الشهير كارليل (١)

البطل هنا ليس آلها عند قومه ، ولكنه نبي مرسل يوحى اليه وهي صورة جديدة للبطل والعبقرية ، ذلك ان الصورة الوثنية الاولى قد دالت ايامها ، وانقضى عهدها ، وليس بطوق الناس في مستقبلات الايام ، مهما بلغ البطل عندهم من خطورة الشأن ، وانبعاث العبقرية الى الايمان بانه آله يأمر وينهي وانه خالق العالم حقاً

والواقع ان اعتبار الرجل العظيم الهاً غلطة عظيمة فاحشة ، ولكن الرجل العظيم ما برح وما يزال لغزاً من الالغاز ، لا تدري الانسانية كيف تفسره ولا كيف تستقبله ، واهم ما يبعث على النظر في تاريخ جيل من الاجيال ، او عهد من العهود ، هو في استقبال هذا الجيل لرجله العظيم ، وسواء استقبلوه كآله او كنبي او غير ذلك

---

(١) كارليل كاتب وفيلسوف انكليزي كبير ، اشتهر في مؤلفاته ببلاغة الاسلوب ، وعمق الآراء ، والاخلاص للحقيقة

فاننا واقفون في هذا الاستقبال على روحية هذا الجيل ، نتفهم عقليته ونقع على مواطن الحقيقة في نفسه

ولقد اخترت محمداً ابحث في تاريخه هذه الظاهرة الثانية من عبادة البطولة في صورة نبي ، ليس لانه اشهر الرسل على الاطلاق ، بل لانه اكثرهم طواعية للبحث والتحقيق ولانه من اصدقهم باعتقادي ، ولست بحاذر خطراً من البحث عنه ، فلا اخشى انقلابكم الى الاسلامية وهو ما يدفعني الى الاشادة بكل صفاته ، والبحث عن سر عظمته ، وماذا كان يريده من احسان في هذا العالم

اما اعتقاد بعض الغلاة المتطرفين في محمد الكذب ، وان ديانته ليست عبارة الا عن خزعبلات واكاذيب ، فامر لا يتفق والحقيقة التاريخية في شيء ابداً ، ودعوى لا تقام عليها بينة ، وقول مردود يعود علينا بالخجل والعار ، وليس يصح من ابناء الحضارة الحاضرة الا صغاء الى مثل هذه الاقوال التي تغمرها الاهواء والمقاصد ، بل ان الواجب محاربة هذه الشوائع والمعتقدات المخجلة السمجة ، لان الرسالة التي اداها هذا النبي ما زالت سراجاً منيراً مدة اثني عشر قرناً لنحو مائتي مليون من الناس امثالنا ، الذين خلقهم الله كما خلقنا ، كما ان الكلمة التي اداها محمد ، يؤمن بها اكثر خلق الله في عصرنا الحاضر — ولعل المحاضر يشير في هذه الجملة الى التوحيد وان الله وحده لا شريك له — . افيلقي في روح احدكم والحالة هذه ان الرسالة التي

عاش لاجلها ، ومات عليها مئات الملايين من البشر مما لا يستطيع حصرهم قلم حاسب ، ا كذوبة وخدعة ؟؟

اما انا فلا استطيع الايمان بهذا الرأي ابداً ، واذا كان الكذب والغش يروجان بين الناس هذا الرواج ، ويصادفان عندهم مثل هذا التصديق والايمان ، فما الناس الا بله مجانين وما الحياة الا سخف وضلال

ومن الحق ان اقول ان مثل هذه المزاعم تبعث على الاسف ، واذا اردنا ان نتفهم حقاً رغبة الله الحقيقية في خلق هذا العالم فيجب ان نرمي بهذه الاقوال جانباً ، لانها نتاج جيل غمره الشك وتسلله الجحود وتخلله الفساد ، هو دليل على خبث القلوب ، وفساد الضمائر وموت الارواح ، ولعل العالم لم ير رأياً افسد من هذا واغرق في الضلالة من الترويج بين الناس بان رجلا كاذباً قد تمكن من انشاء دين في العالم ؛ والرجل الكاذب ليس بطوقه ان يبنى بيتاً من الطوب ، اذا لم يكن عليما بخصائص الجير والجص والتراب ، ولا يلبث ان ينهار بيته اذا لم يكن كما ذكرنا ، ويستحيل ان يبقى قائماً على دعائمه اثني عشر قرنا يسكنه مائتا مليون من الانفس كما هو الحال في الاسلام اليوم

والاخلاص الحق العميق اول مزايا الرجل العظيم ، لا اعني اخلاص ذلك الرجل الذي لا يبرح يفتخر على قومه باخلاصه ، لان

هذا حقير جداً ، بل هو اخلاص سطحي مليء بالغرور ، ذلك ان اخلاص العظيم شيء لا يتحدث به صاحبه ولا يشعر به ،بل لقد يغرق احيانا فيلقي في روعه انه غير مخلص حقا ، اذ من يستطيع ان يلزم منهج الحق والعدل يوما واحداً ؟؟ اجل ان العظيم لا يفخر باخلاصه ، بل هو لا يسأل نفسه المخلصة هي حقا ؟ كما ان اخلاصه غير موقوف على ارادته فهو مخلص برغمه ، وهو يرى الكون حقيقة كبرى تفزعه وتروعه ، حقيقة لا يستطيع الهرب منها ومن جلالها الباهر ما حاول واراد

ان لله آيات كثيرة ، ومن آياته هذا العظيم الذي خلقه والذي هو احدث آياته واجدها ، والذي تولاه بالوحي وعلمه الحكمة ، فعلينا ان نصغي له ونستمع لمقاله

وما محمد في الواقع بالرجل المتصنع الكاذب يروج لاغراضه ويتذرع بالاحابيل الى رغباته،وما الرسالة التي اداها إلا حق وما كلماته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول ، ما هي بالكاذبة ولا الملفقة ولا كانت اعماله في هذه الدنيا بالبعيدة عن الاخلاص والصدق وما كان غير قطعة من الحياة تفطر عنها قلب الطبيعة لينير العالم ، كذلك اراد خالق الكون ، هذه هي الحقيقة ، وليس ينقضها ما يتهم به محمد من اخطاء وغلطات ، خصوصا وان هذه الاخطاء لم يقم عليها برهان ، ولم تؤيدها حجة وهي ان صحت لا تهدم الحقيقة

الواقعة من ان محمداً كان رجلا صادقاً

ان العرب الذين نشأ بينهم محمد امة شريفة كريمة ، تسكن بلاداً كريمة ، و كانما خلق الله البلاد لهذه الامة ، فامتزج الروحان والتقى الاخوان ، و كان هناك شبه قريب بين وعورة الجبال ، ووعورة اخلاق السكان ، وبين جفاء منظرها ، وجفاء طباعهم ، سماء هادئة وحر شديد ، وشمس شديدة اللمعان قوية النور ، و كان يلطف من قسوة قلوبهم مزيج من اللين والدماثة ، كما كان يخفف من عبوسة العربية ، رياض خضراء ووديان ذات امواه ، بلاد قاحلة ما يتجه نظر احد اليها ، وقبائل وعشائر بدوية تعتمد في معاشها الاقتصادي على التجارة وبعض الثمرات والماشية ، وما تنتضح به الماشية من البان وغيرها .

وكان الاعرابي صامتاً لا يتكلم الا في ما يعنيه ، فقد كانت ارضه خرساء ، تخالها بحراً من الرمل ، شديدة الحر في النهار كثيرة القر في الليل

ولا احسب اناساً شأنهم الانفراد وسط المفاوز والقفار يحادثون الطبيعة ويناجون اسرارها ، الا ان يكونوا من اهل الذكاء ، وحدة الخاطر ، وخفة الحركة ، وبعد النظر

....

والحق اقول ، لقد كان اولئك العرب قوماً اقوياء النفوس ،

شريفو الخلق ، شديدو الحزم ، قويو الارادة وهي صفات الشريف بين الرجال ، وكان احدهم يقصده الغريب عنه ، فيكرم مثواه ويبالغ في اكرامه وينحر له ، وقد يراه بعد ذلك فلا يرى في مقاتلته كبير امر

ويقول بعد المؤرخين ان العرب واليهود من فصيلة واحدة ، والحقيقة انهم شاركوا اليهود في مرارة الجد والصبر ، وخالفوهم في حلاوة الشمائل ورقة الظرف ، والمعية القريحة ، واريحية القلب ، وكان لهم قبل زمن محمد منافسات شعرية ومطارحات ادبية ، كانت تنتظم مجالس في سوق عكاظ في جنوب العربية ، حيث كانت تقام اسواق التجارة ، فاذا انتهوا من متاجرهم تناشدوا الشعر ، وتسابقوا في حلبة البيان ابتغاء الجائزة تكون للاجود قريضاً ، والابدع تصرفاً ، فترى الاعراب الجفاة ذوو الطباع الخشنة يترنحون لنغمات القصيد ، ويتمايدون لجميل القريض

وعاش العرب دهوراً خاملو الذكر غامضو الشأن ، جماعات تنعم بمناقب جميلة وصفات كبيرة ، ينتظرون من حيث لا يشعرون يوماً يشاد فيه ذكرهم ، ويطير في الآفاق صيتهم ، ويرتفع الى عنان السماء صوتهم ، وكانت وثنياتهم قد فشلت في كشف الحقائق الكبرى لهم ، وآذنت بالسقوط والاضمحلال ، وكان قد بلغهم على مدى القرون انباء مختلفة تتعلق باكبر حادث في التاريخ وهي حياة

المسيح ووفاته فلم تعدم هذه الانباء من التأثير في قلب البلاد العربية وبين شتى جماعاتها ، ومختلف قبائلها

ـــ ورأى محمد النور في تلك الفترة عام ٥٧٠ ميلادية ، ومات والده قبل مولده بشهرين ، وماتت امه وهو في السادسة من عمره ، وكان لها شهرة من جمال وفضل وعقل حصيف ، فتبناه جده عبد المطلب وهو شيخ قد ناهز المائة من عمره ، وكان صالحاً براً وكان ابنه عبد الله — والد محمد ، احب اولاده اليه ، فابصرت عينه الهرمة في محمد صورة فتاه المحبوب فعطف على اليتيم الصغير بملء جوارحه ، وكان يقول بوجوب العناية بهذا الصبي الجميل ، الذي فاق سائر الاسرة والقبيلة حسناً وجمالاً ، ولما حضرت الشيخ الوفاة كان الفتى الجميل في التاسعة من العمر ، فاحتضنه عمه ابو طالب وهو رأس الاسرة بعد عبد المطلب فاحسن تربيته — وكان رجلا عاقلا — على احسن التقاليد العربية ولما شب محمد وترعرع صار يصحب عمه في اسفاره التجارية وفي الثامنة عشرة من عمره نراه فارسا يتبع عمه ، ولعل اهم اسفاره مع عمه السفرة التي وقعت قبل هذا التاريخ ببضع السنين يوم ذهب عمه الى معرض في الشام فوجد الفتى نفسه في عالم الديانة المسيحية ، ولست ادري ما اقوله في ذلك الراهب النسطوري (سرجيوس) الذي يقال ان ابا طالب ومحمداً اقاما معه في دار واحدة ، ولا ماذا

يتعلمه غلام في مثل هذا السن من اي راهب ما ، والواقع ان في هذه القصة بعض الاغراق لان محمداً لم يكن يتجاوز اذ ذاك الرابعة عشر [١] وهو لا يعرف لغة ولا يقرأ كتابا ، ولا شك ان ما شاهده في الشام من الوان الحياة كان خليطا مشوها ، فكان يرى ما ينكره ولا يعرف لانكاره سببا ولا وجها ، ولكن الغلام ثاقب النظر ، فلا بد وان يكون قد انطبع على لوحة فوءاده ما رآه وابصره دون ان يفهمه ريثما تتناول الايام ما رآه وابصره بالتقليب والتهذيب ، فيخرج من كل ذلك آراء وعقائد ونظرات نافذات ، وبذلك كان لهذه الرحلات الشامية فوائد كثيرة لا يستهان بها

ويجب ان لا يسهى عن بالنا امر آخر وهو ان محمداً لم يثقف في مدرسة ، ولا تلقى درساً على استاذ ، وصناعة الخط كانت حديثة العهد في زمنه ، ومن المؤكد ان محمداً لم يكن يعرف الكتابة وكل ما تعلمه لا يتعدى حياة الصحراء والوانها ، وكل ما وفق الى معرفته الى ما شاهده بعينه ، وسمعه باذنه ، ولم يضر به هذا ولم يزر به ، ولعل هذا الجهل بالعلوم والمعارف التي كانت بعيدة عنه او قريبة منه كان نافعاً له مفيداً لشخصه ، لانه كان بنفسه غنياً عن كل ذلك ، فقد نشأ وعاش وحده في احشاء الصحراء ، ونما فيما بين الطبيعة لا سمير له الا نفسه وفكره ·

---

(١) والحقيقة التاسعة من عمره

وكان محمد فتى مفكراً هادئاً وهو ما يبرح طفلاً ، اسماه رفقاؤه الامين — اشارة لصدقه ووفائه — فكان رجل صدق واخلاص في قوله وعمله وتفكيره ، فلا يتكلم الا بمقدار ، ولا ينطق الا لمعنى وغاية ولا يتناول غرضاً الا انار شبهاته ، وكشف ظلمته واستثار دفينته ، وقد رأيناه طوال عمره رجلاً راسخ المبدأ صارم العزم ، بعيد الهمة كريماً براً رؤوفاً تقياً فاضلاً حراً ، سهل الجانب مع شدة في الاخلاص على المبدأ ، لين العريكة ظاهر البشر والطلاقه ، حميد المعشر ، حلو الايناس ، حسن المخالطة والمنادرة تضيء وجهه ابتسامة مشرقة من فؤاد صادق ، لان هناك من تكون ابتسامته كاذبة لكذب اعماله واحواله ، هؤلاء لا يستطيعون ان يبتسموا ، وكان محمد جميل الوجه ، مضيء الطلعة ، حسن القامة زهي اللون ، له عينان سوداوان ، تتلألان ، واني لاحب في جبينه ذلك العرق الذي كان ينتضح ويسود ويظهر حين يغضب ، وهذا العرق خصيص في بنى هاشم ولكنه كان في محمد ابين واظهر ، والخلاصة انه كان حاد الطبع ، ناري المزاج ، عادلاً صادق النية ذكي اللب شهم القلب ، ممتلئاً ناراً ونوراً عظيماً بفطرته ، لم تثقفه مدرسة ولا هذبه معلم ، وكان غنياً عن ذلك كله ، فادى عمله في الحياة وحده في اعماق الصحراء .

اما قصته مع خديجة فانها جميلة رائعة ، لقد كان يعمل لها

اولاً كقيم على متاجرها الى الشام ، و كان منهجه اقوم منهج تغمره الامانة والحزم ، فزادت به ثقتها ، و كثر له شكرها ، وقوي حبها له حتى تزوجته ، وقصة زواجهما من اجمل ما نقله الينا العرب من القصص ، ولما زوجت منه كانت في الاربعين من عمرها ، و كان هو يضطرب في الخامسة والعشرين ، و كان لا يزال عليها مسحة من ملاحة وجمال ، ويظهر انه عاش مع زوجه هذه على اتم وفاق والفة وصفاء وغبطة مخلصاً لها الحب و كل اخلاص

و كما يبطل دعوى القائلين ان محمداً لم يكن صادقاً في رسالته بل ملفقاً مزوراً ، ما نعرفه من انه قضى عنفوان شبابه في عيشة هادئة مطمئنة ، ما حاول اثناءها ضجة ولا حدثاً ، مما يكون من ورائه شهرة ومجد وسلطان ، ولم يتحدث برسالته السماوية الا في الاربعين من عمره ، و كل حوادثه وشواذه حقيقة كانت او ملفقة تبتدئ من التاريخ الذي توفيت به زوجه و كان في الخمسين من عمره ، مما يدل على انه حتى هذا الوقت كان قانعاً بالعيش الهادئ الساكن ، و كان حسبه من الحياة وشهرتها ثقة جيرانه به ، وجميل ظنهم باعماله ، واذا كان هناك من شهرة وعظمة وسلطان في ما انصرف اليه من اعمال بعد هذا التاريخ فذلك بعد ان ذهب الشباب واقبل المشيب ، وهي ظاهرة غريبة لان الناس لا ينتظرون مثل هذا السن لطلب المجد والسلطان

والواقع ان هذه المزاعم التي يتخيلها البعض في اغراض محمد بعيدة عن الحقيقة والواقع ، فان ابن القفار لم يكن يطلب امجاد الدنيا ولا كان يهمه من امرها لا قليلاً ولا كثيراً .

نفس صامتة كبيرة ، ورجل من الذين لا يستطيعون إلا الاخلاص حقاً ، فاذا رضي غيرهم بالاصطلاحات الكاذبة ، ترى محمداً لا يرضى بمألوف الاكاذيب ومختلف الاباطيل ، رجل منفرد بنفسه العظيمة ، يعيش مع الحقائق الكونية ، فيسطع امامه سر الوجود وما فيه من اهوال ومخاوف وغير ذلك ولم يكن هناك اباطيل تحجب ذلك عنه ، فكان دائماً لسان حال هذا السر الهائل يناجيه قائلاً (ها انذا) ومثل هذا الاخلاص لا يخلو من معنى الهي مقدس ، وما كلمة من مثل هذا الرجل إلا صوت خارج من صميم قلب الطبيعة وعلى الناس ان يستمعوا لذلك ويتركوا كل شي سواه لان ما ما عدا هذا الكلام هبأ وباطل ...

والواقع ان محمداً ما زال منذ ايام رحلاته واسفاره يجول بخاطره آلاف الافكار : ماذا انا ؟ وما هذا الشيء العديم النهاية الذي اعيش فيه ، والذي يسميه الناس كونا ؟ وما هي الحياة ؟ وما هو الموت ؟ وماذا اعتقد ؟ وماذا افعل ؟ فهل اجابته على ذلك كله صخور جبل حراء او ناطحات الطور او تلك القفار والفلوات ؟ كلا فان هذه كلها لا تستطيع جواباً ، وما الجواب الا في نفسه

وروحه ، وما اودع الله في هذه الروح من اسراره .

وهي بعد مسائل يجب على كل انسان ان يسأل نفسه عنها ومثلنا في ذلك مثل غيرنا من الناس ، وقد احس بذلك هذا الرجل الفطري ، لان هذه الامور هي كبرى المسائل عنده وغيرها تافه عديم الخطر ، وهو ليس بواجد جواباً معقولاً لهذه الامور في ما تروج له فرق اليونان الجدلية من آراء وافكار ، ولا هو واقع عليه في تقاليد اليهود ورواياتهم ، ولا في النظام الوثني عند العرب ، وان من اهم خصائص البطل واولى صفاته وآخرها ان ينظر من خلال الظواهر الى البواطن ، فاما العادات والاعتبارات والاصطلاحات فهي بين احد امرين ، اما تكون جيدة او رديئة ، وهو في كل هذا يحاول الوصول الى الحقيقة ، ذلك انه لا بد ان يكون وراء هذه الاوثان التي يعبدها القوم شيئاً ، وهي ليست في الواقع غير رموز له واشارة اليه ، والا فهي باطل وزور وقطع من الخشب الاسود لا تضر ولا تنفع .

وما هذا الرجل والاصنام ولو عبدها رجال قريش ومشت اليها قبائل العرب كافة ، ان هناك حقيقة تنظر اليه وعليه ان يقع على جواب لها ، او يعيش كسواه وغيره في ظلمات الجهل الهمجية .

فاما ما يتهمونه به من الطمع وحب الجاه حين يرونه ينصرف الى بحث الحقيقة الانسانية فتهمة باطلة ، وماذا تستطيع البلاد

العربية من اقصاها الى اقصاها ومعها تاج قيصر وصولجان كسرى ، وجميع ما في الارض من تيجان ان تفعل لمثله ، انه لا يريد الارض ولا يعمل لها ، ولكنه يريد السماء ويسعى لمعرفة الحقيقة فيها ، وبعد فما مصير هذه التيجان والممالك والدول بعد حين من الدهر ؟ انها زائلة وكل شيء زائل ، واما الحقيقة فتظل حية الى الابد ، وهو ما يسعى اليه محمد ويريده ، ولذلك فلنضرب صفحاً عن هذه التهم التي يرمى بها محمد ، لان في موافقتنا وتأييدنا لهذه المزاعم عاراً وسبة ، وهو امر يجب ان نترفع عنه وتربأُ بانفسنا من السقوط في مثله

كان من عادة محمد ان يعتزل الناس في شهر رمضان من كل سنة ، فينقطع الى السكون والوحدة ، كعادة العرب ، وهي عادة جليل نفعها لمثل هذا الرجل ، يسائل ضميره ويحاوره صامتاً بين هذه الجبال التي لا تنطق كلمة ، ولا تحير جواباً ، فاتحاً صدره لصوت السكون الخفي ، يستمع الى ما في اعماق الحياة من حقائق صادقة لا يعتورها ضلال ولا تزوير ، وكان محمد في الاربعين من عمره لما خلا الى نفسه في جبل (حراء) قرب مكة ليصرف شهر رمضان في الصلاة والعبادة ، وفي التفكير في تلك المسائل الكبرى التي كانت تشغل فكره وتثير عواطفه .

جاء يوماً الى زوجته خديجة يقول لها : انه بفضل الله

وحنانه قد استجلى غامض الامر ، وعرف الشك من اليقين ، وان هذه الاصنام ليست في الواقع غير اخشاب صغيرة ، وانه لا آله الا الله وحده لا شريك له ، وعلينا ان نترك الاصنام وننظر اليه ، وان الله هو العظيم القوي ، وكل ما خلا ذلك باطل ، وليس غيره حقاً ، هو الذي خلقنا من العدم وهو الذي يرزقنا ، والمخلوقات كلها ليست في الحقيقة غير خيال له ، وستار يحجب النور الابدي ، وان القوة كل القوة هي في التسليم لامره ، والاذعان لمشيئته والرضاء بقسمته في الدنيا وفي الآخرة ، ومهما يصيبنا من خير او شر فلنتقبله بطلاقة وجه ، ونفس مغتبطة ·

وانه لمن السخف بمقدار عظيم ان يحاول الانسان منا بدماغه الصغير ان يتفهم الكون العظيم ، وعليه ان يعتقد بان للكون قانوناً عادلاً ، وان صعب عليه دركه ، وان الخير هو اساس هذا الكون وان الروح فيه هي روح الآله جل شأنه ، نعم عليه ان يعرف ذلك ويتفهمه ويؤمن به في سكوت وتقوى ، خاضعاً له ، دون ما سؤال

هذا روح الاسلام ! وهذا هو ايضاً روح النصرانية ، والاسلام لو تفقهون ضرب من النصرانية ، والاسلام والنصرانية يأمراننا ان نتوكل على الله قبل كل شيء ، وان نكظم النفس عن الشهوات وننهي القلب عن الهوى ، وان لا نجمح في عنان المنى ،

وان نصبر على البؤس والاسى ، وان نعرف انا لا نعرف شيئا ، وان نرضى من الله بكل ما قسم ، ونعدها يداً بيضاء ، ونعمة غراء ، ونقول الحمد الله على كل حال ، الايمان بالله ، ولو كان في الايمان الموت ، وتضحية النفس في سبيله جل جلاله ، هذا هو الاسلام وهذا اشرف ما نزل من السماء على بني الارض

ولقد اصغت اليه زوجه خديجة الصالحة في اضطراب وشك ثم آمنت واجابت :

« اي وربي انه لحق » ونتخيل ان محمداً شكر لها ذلك الصنيع ورأى في ايمانها بكلمته المخلصة المقذوفة من بر كان صدره ، جميلا يفوق كل ما اسدت اليه من قبل ، فانه ليس اروح لنفس المرء ، ولا اثلج لحشاه من ان يجد له شريكا في اعتقاده ، وكذلك ما انفك محمداً يذكر خديجة حتى لقي ربه ، حتى ان عائشة — زوجه الصغيرة المحبوبة تلك التي اشتهرت بين المسلمين بجميع المناقب والفضائل طول حياتها — هذه السيدة البارعة الجمال والفطنة، سألته ذات يوم : « الست الان افضل من خديجة ؟ لقد كانت ارملة مسنة قد ذهب جمالها ، واراك تحبني اكثر مما كنت تحبها ، فاجاب محمد « كلا والله لست افضل منها ، وهي التي آمنت بي ، والكل كافر منكر ، ولم يك لي في هذا العالم الا صديق واحد — وهذا الصديق هي »

وجعل يذكر رسالته لهذا وذاك ، فما كان يصادف الا جموداً وسخرية ، حتى انه لم يؤمن به في خلال ثلاثة اعوام الا ثلاثةعشر رجلا وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع ، وهو امر منتظر في مثل حاله ودعوته وبعد هذه السنين الثلاث آدب مأدبة لاربعين من ذوي قرابته ، ثم قام بينهم خطيباً ، فذكر دعوته ودعاهم الى الايمان بالله وسألهم ايهم يمد يده اليه ويناصره

وبينما القوم صامتون وقد تملكتهم الحيرة والدهشة وثب علي رضي الله عنه — وكان غلاما في السادسة عشرة من عمره — وقد غاظه سكوت الجماعة فصاح في احدّ لهجة :

— انا ذلك النصير والظهير

ولم يكن القوم كلهم من اعداء محمد ومنابذيه ، وكلهم من ذوي قرابته ، وفيهم ابو طالب عم محمد وابو علي ، ولكن رؤية رجل كهل امي يساعده غلام في السادسة عشرة يقومان في وجه العالم باجمعه ، كان مما يدعو الى العجب المضحك

ولكن الامر في الواقع لم يك مضحكا ، بل كان في نهاية الجد والخطورة ، اما علي نفسه فلا يسعنا الا ان نحبه ونتعشقه ، فانه فتى شريف القدر كبير النفس يفيض وجدانه رحمة وبراً ، ويتلظى فؤاده شجاعة وحماسة ونجدة ، وكان اشجع من الاسد ، ولكنها شجاعة ممزوجة برقة ولطف ، ورأفة وحنان ، جدير بها

فرسان الصليب في القرون الوسطى ،

وليس السؤال المهم عند الطبيعة « افيك قشور ام لا! بل افيك قمح ؟ واستطيع ان اقول لبعض الناس « انت نقي؟ نقي جداً ولكن فيك من القشور شيء كثير ، وانت بعيد عن الاخلاص، بعيد عن الطبيعة ، انت لا شيء والطبيعة لا تعرفك ، وهي منك براء

لقد اسميت الاسلام ضربا من النصرانية ، ولو نظرنا الى ما كان من سرعته الى القلوب وشدة امتزاجه بالنفوس واختلاطه بالدماء في العروق لايقنا انه كان خيراً من تلك النصرانية التي كانت اذ ذاك في الشام وغيرها ، تلك النصرانية التي كانت تصدع الرأي بضوضائها الكاذبة ، وتترك القلب باباطيلها قفراً ميتاً ، وما كان فيها من عنصر الحق كان ضئيلا جدا، وبفضله آمن الناس بها ، وحقاً انها كانت ضربا كاذباً من النصرانية ؛ ولكنها ضرب حي على كل حال ذو حياة قلبية وليست مجرد قضايا منطقية قفرة

ونظر محمد من وراء اصنام العرب الكاذبة ومن وراء مذاهب اليونان واليهود ، ورواياتهم وبراهينهم ، ومزاعمهم وقضاياهم ، نظر ابن القفار والصحاري بقلبه البصير الصادق ، وعينه المتوقدة الجلية الى لباب الامر وصميمه فقال في نفسه : الوثنية باطل ، وهذه الاصنام التي تصقلونها بالزيت والدهن فيقع عليها الذباب ، اخشاب لا تضر ولا تنفع ، وهي نكر وفظاعة و كفر لو تعلمون ، انما

الحق ان لا اله الا الله وحده لا شريك له خلقكم و بيده حياتكم وموتكم وهو أرأف بكم منكم بانفسكم ، وما اصابكم من شيء فهو خير لكم لو كنتم تفقهون

وان ديناً آمن به اولئك العرب الوثنيون وامسكوه بقلوبهم النارية لجدير ان يكون حقاً وان يكون صادقاً

وجاء محمد وشيع النصارى تقيم اسواق الجدال ، وتتخابط بالحجج الحائرة ، ولقد جاء الاسلام على تلك الملل الكاذبة والنحل الباطلة فابتلعها وحق له ان يتلعها ، لانه حقيقة خارجة من قلب الطبيعة ، وما كاد يظهر الاسلام حتى احترقت فيه وثنيات العرب وجدل النصرانية ، وكل ما لم يكن بحق كان حطباً ميتا اكلته نار الاسلام

ولقد كان محمد يملي القرآن على اصحابه في فترات مختلفة في السلم والحرب ، وخصوصاً بعد هجرته الى المدينة ، هذا هو الكتاب الذي تحدى محمد واصحابه العرب بان يأتوا بسور من مثله ، وفرط اعجاب المسلمين به وقولهم باعجازه ، دليل على اختلاف الاذواق ، وتباين الاساليب الكتابية في الامم المختلفة ، والترجمة تذهب حتماً بجمال الصنعة ، وحسن الصياغة ، فلا عجب والحالة هذه اذا وجد الاوربي عناء في قرائته ، لانه يقرأه كما يقرأ الصحف فلا يزال يقطع في صفحاتها قفاراً من الكلام الممل حتى يعثر على كلمة مفيدة

وفكرة ناضجة ، اما العرب فيرونه على عكس ذلك ، لما بين آياته واذواقهم من الملائمة ، ولانهم يقرأونه في لغتهم ، فلا تذهب الترجمة برونقه وروعته ، فلذلك رآه العرب من المعجزات ، واعطوه من التبجيل ما لم يعطه اتقى النصارى لانجيلهم ، وما برح هذا الكتاب في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها ، والوحي المنزل من السماء هدى للناس ، وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ، ويهديهم صراطاً مستقيماً

اذا خرجت الكلمة من اللسان لم تتجاوز الآذان ، واذا خرجت من القلب نفذت الى القلب ، والقرآن خارج من فؤاد محمد ، فهو جدير ان يصل الى افئدة سامعيه وقارئيه ، وقد زعم « براديه » وامثاله انه طائفة من الاخاديع والتزاويق لفقها محمد لتكون اعذاراً له عما كان يرتكب ويقترف ، وذرائع لبلوغ مطامعه وغاياته ، ولكنه قد آن لنا ان نرفض جميع هذه الاقوال ، فاني لأمقت كل من يرمي محمداً بمثل هذه الاكاذيب ، وما كان ذو نظر صادق ليرى قط في القرآن مثل ذلك الرأي الباطل ·
والقرآن لو تبصرون ما هو الا جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد ان أوقدتها الافكار الطوال ، في الخلوات الصامتات ، وكانت الخواطر تتراكم عليه باسرع من لمح البصر ، وتتزاحم في صدره حتى لا تكاد تجد مخرجا ، ولقد لاقى محمد في

رسالته ابداً كثيراً جعله في نصب دائم وعناء مستمر فلم تذق نفسه الراحة بعد قيامه بالرسالة قط ، وقد اتخيل روح محمد الحادة النارية وهي تتململ طول الليل الساهر ، يطفو بها الوجد ويرسب ، حتى اذا اسفرت لها بارقة رأي حسبته نوراً هبط عليها من السماء وكل عزم مقدس يهم به يخاله من جبريل ووحيه .

اما ان نعتقد انه افاك محتال ، فهذا ما نرفضه ولا نقبله ابداً .

وقد قيل و كتب كثيراً في شهوانية الدين الاسلامي ، وأرى كل ما قيل و كتب جوراً وظلما ، فان الذي اباحه محمد مما تحرمه المسيحية لم يكن من تلقاء نفسه ، وانما كان جاريا متبعا لدى العرب من قديم الازل ، وقد قلل محمد هذه الاشياء جهده ، وجعل عليها من الحدود ما كان في امكانه ان يجعل ، والدين المحمدي بعد ذلك ليس بالسهل ولا بالهين و كيف ومعه كل ما تعلمون من الصوم والقواعد الصعبة الشديدة ، وفيه الصلاة خمسا في اليوم ، والحرمان من الخمر ، وليس كما يزعمون ، كان نجاح الاسلام وقبول الناس اياه لسهولته ، لانه من افحش الطعن على بني آدم والقدح في اعراضهم ان يتهموا بان الباعث لهم في محاولة الجلائل واتيان الجسائم ، هو طلب الراحة واللذة ، والتماس الحلو من كل صنف في الدنيا والاخرة !

و كان محمد اخا شهوات برغم ما اتهم به ظلما وعدوانا ، وشد ما نجور ونخطيء اذا حسبناه رجلا شهويا ، لاهم له الا قضاء مآربه

من الملاذ ، كلا فما ابعد ما كان بينه وبين الملاذ ، لقد كان زاهداً متقشفا في مسكنه ، ومأكله ومشربه ،وملبسه ، وسائر اموره واحواله وكان طعامه عادة الخبز والماء ، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار وانهم ليذكرون — ونعم ما يذكرون — انه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده ، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام ، مجتهد في الله قائم النهار ، ساهر الليل ، يدأب في نشر دين الله ، غير طامح الى ما يطمح اليه اصاغر الرجال من رتبة او دولة او سلطان ؛ غير متطلع الى ذكر او شهرة كيفما كانت ، رجل عظيم والله ، والا فما كان ملاقيا من اولئك العرب الغلاظ توقيرا واحتراما واكباراً واعظاما ، وما كان يمكنه ان يقودهم ويعاشرهم معظم اوقاته ، ثلاثا وعشرين حجة وهم ملتفون به يقاتلون بين يديه ، ويجاهدون حوله ، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء ، وغلاظة ، وبادرة ، وعجرفية ، وكانوا حماة الانوف ، اباة الضيم ، وعر المقادة ، صعاب الشكيمة ، فمن قدر على رياضتهم ، وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا ، فذلكم وايم الله بطل كبير ، ولولا ما ابصروا فيه من آيات النبل والفضل ، لما خضعوا له ولا اذعنوا

وظني انه لو كان انيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه ، لما كان مصيبا من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في

ثوبه المرقع بيده ، و كذالك تكون العظمة ، وهكذا تكون الابطال

واني لاحب محمداً لبراءة طبعه من الرياء والتصنع ، ولقد كان ابن القفار هذا رجلا مستقل الرأي ، لا يعول الا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ولم يك متكبرا ولكنه لم يكن ذليلا ، فهو قائم في ثوبه المرقع كما اوجده الله وكما اراد ، يخاطب بقوله الحر المبين ، قياصرة الروم واكاسرة العجم ، يرشدهم الى ما يجب عليهم لهذه الحياة وللحياة الاخرى وكان يعرف لنفسه قدرها ، ولم تخل الحروب الشديدة التي وقعت له مع الاعراب من مشاهد قسوة ، ولكنها لم تخل كذلك من دلائل رحمة و كرم وغفران ، و كان محمد لا يعتذر من الاولى ولا يفتخر بالثانية ، اذا كان يراها من وحي وجدانه ، ولم يكن وجدانه لديه بالمتهم ولا شعوره بالظنين

وفي الاسلام خلال اراها من اشرف الخلال واجلها ، وهي المساواة بين الناس ، وهذا يدل على اصدق النظر ، واصوب الرأي فنفس المؤمن راجحة بجميع دول الارض والناس في الاسلام سواء .

والاسلام لا يكتفي بجعل الصدقة سنة محبوبة ، بل يجعلها فرضا محتماً على كل مسلم ، وقاعدة من قواعد الاسلام ، ثم يقدرها بالنسبة الى ثروة الرجل ، فتكون جزء من اربعين من الثروة ، تعطي الى الفقراء والمساكين والمنكوبين ، جميل والله كل هذا

وما هو الا صوت الانسانية — صوت الرحمة والاخاء والمساواة ،
يصيح من فؤاد ذلك الرجل — ابن القفار والصحراء

....

وينكر البعض تغلب الحسية والمادية على جنة محمد وناره ، فاقول ان العيب في ذلك على الشراح والمفسرين لا على ماجاء في الكتاب ، فان القرآن قد اقل جدا من اسناد الحسيات والماديات الى الجنة والنار ، وكل ما فيه عن هذا الشأن ايماء وتلميح ، وانما المفسرون والشراح هم الذين لم يتركوا لذة حسية ، ولا متعة شهوية حتى الحقوها بالجنة ، ولا عذابا بدنيا ، وألما جثمانيا ، حتى اسندوه الى النار

واي دليل اشهر ببراءة الاسلام من الميل الى الملاذ من شهر رمضان الذي تلجم فيه الشهوات ، وتزجر النفس عن غاياتها ، وتمنع عن مآربها وهذا هو منتهى العقل والحزم ، فان مباشرة اللذات ليس بالمنكر ، وانما المنكر هو ان تذل النفس لجبار الشهوات ، وتنقاد لحادي الاوطار والرغبات ، ولعل امجد الخصال واشرف المكارم ، هو ان يكون للمرء من نفسه سلطان ، وان يجعل من لذاته لا سلاسل واغلال تعييه وتعتاص عليه ، اذا هم ان يصدعها ، بل حليا وزخارف متى شاء ، فلا شيء اهون عليه من خلعها ، ولا اسهل من نزعها ، وكذلك امر رمضان سواء ان كان مقصوداً من محمد معينا ، او كان وحي العزيزة والهاما فطريا ، فهو والله نعم الامر



محمد الامين الصادق

بقلم اميل درمنغهم الكاتب الافرنسي [١]

عرض هذا الكاتب للمصادر التي استقى منها كتابه عن محمد ، واشار الى اختلاف المستشرقين العظيم في بحث سيرته ، ودرس تاريخه ، وكيف انه وجد النتائج التي وصل اليها المحدثون ناقصة جداً ، فالمستشرق الفلاني يحكم بان محمداً كان اعلى من ابناء من عصر ، والآخر يقول انه كان شبيهاً بهم من كل وجه ، وهذا يقول انه توفي على اثر تخمة ، وآخر يقول انه اصابته حمى منشؤها كثرة صومه ، وقال (لامارتين) : « انه لم يكن الهاً ولكنه كان اكثر من رجل اي كان نبياً » ، وزعم (سبرنغر) انه كان مصاباً بالهستريا ، فهدم هذا الزعم « بانيسكى » كما صرح (ماسينيون) بان محمداً كان على تمام الاعتدال في مزاجه ، واما الاب لامنس

---

(١) اميل درمنغهم من كتاب الفرنسيس ، اقام ببلاد المغرب وخالط المسلمين فيها ، وهو من كتاب الغرب المخلصين العادلين في احكامهم ، وكتابه الاخير عن «حياة محمد» آية في الاعتدال والاخلاص ، مع انه كاثوليكي متعصب لدينه ٠

فهو وان كان من احدث المستشرقين العصريين وا كثرهم اطلاعاً الا انه كذلك من اكثرهم تعصباً ، وقد ذهبت (جيزونيته) برائع بحوثه ، وعظيم معلوماته

ويعرض (درمنغهم) لنشأة محمد فلا تستشعر في بحثه شيئاً من الريبة في صدق محمد واخلاصه في دعوته ، فاذا وصل الى بعثة الرسول قال : « كان محمد في حالة بحران فكان ينشد السكون في تلك الجبال التي كان يذهب فيخلو فيها بنفسه متأملاً في السماء ذات الكواكب ، منصتاً الى ما كان يسمعه من اعمق اعماق قلبه وهو الرجل الامي الفطري الصادق ، وذلك الصوت هو صوت الحقيقة الابدية الخارج من قلب الاشياء نفسها ، وقد كان يشعر بان ما يجري في عصره من امور لم يكن مستقيماً ، و كان لا يطيق الا الحق ، والحق الذي لا ريبة فيه ، فالحياة التي كانت عليها قريش لم تكن حياة صحيحة ، متمولون يبعثون بقوافل للتجارة ويربحون ارباحاً فاحشة، واعراب بدو يشنون الغارات ولا يعرفون الا الفوضى ، وافاقون يفعلون كل ما يخطر ببالهم ، و كل هؤلاء لا يحيون حياة صحيحة ، وينسون ان الاصنام المصفوفة في الكعبة ليست الا معبودات باطلة ، وان (الهبل) ذا اللحية الكبيرة لم يكن الا باطلاً .

وقال : لم يكن محمد ممن لا يعرف العلم الباطني ، نعم لم يكن متصوفاً بالمعنى المعروف ، الا انه كان ممن يرى ان الامور

التي في الغيب اعظم من الامور التي تحت الحس ، فالنظام الروحي في نظره هو الاهم وهو الوجود والحقيقي ، فمحمد قد قبض على هذه الحقيقة بيده ونادى الناس ليتمسكوا بها ، جاء بقلب خال من كل كذب ، ومن كل ثقافة باطلة ، ومن كل نخفخة فارغة ، وامسك بكلتا يديه بالعروة الوثقى ، ولا يمنع هذا من انه كان عملياً تام المعرفة باحوال العالم المادي ، بل كان ذلك التجرد الروحي اعون له على ادارة امور الدنيا ، وهكذا كان كبار الروحيين في العالم يتغلبون على العالم المشهود بالعالم غير المشهود ..

فيرى القاري ان هذا الرجل الافرنسي الكاثوليكي لم يتهم محمداً صلوات الله عليه بريبة ، ولا حمل دعايته الى الله على مأرب دنيوي ، ولا رماه بشيء من الاكاذيب التي طالما رماه بها كثير من الاوروبيين عن بغض وتعصب وعن جهل وخطل .

ويعود درمنغهم الى تصوير محمد قبيل البعثة والوحي فيقول :

« في نواحي سنة ٦١٠ للمسيح بلغ البحران النفسي بمحمد اشده ، لا يستطيع ان يتصور حالة قومه دون ان يتألم ويضطرب قلبه اشفاقاً ، وكان يحس ان امراً ضرورياً جداً ينقصه وينقص قومه وكان يرى العرب وكل قبيلة منهم تعكف على صنمها تعبده وتتقدم اليه بالعبودية يتعامون بذلك عن الحقيقة الواحدة

وهي الحقيقة الالهية

و كان قلب محمد قد خلا من كل فكر غير التفكير بالله ، و كان قد تجرد من كل قوة غير هذه القوة ، و كان قد عرف الله وعرف العقيدة بالله عند نصارى سورية او مكة ، وعرف ان هناك كتباً سماوية ، وان رسلاً موحى اليهم كانوا يكلمون اقوالهم بلسان الحق تعالى ، وانه كلما ضل الناس عن الصراط المستقيم كانت تأتي رسل فتهيب بهم اليه ، وتذكرهم بالحقيقة السرمدية فالديانة التي كان يبعث الله بها الرسل لم تزل واحدة ، وانما كان البشر يحرفونها عن مواضعها ، فيعود المرسلون ويردونها الى اصلها، فالامة العربية كانت لذلك العهد في ابان ضلالها ، افلم يكن هذا هو الوقت الذي حانت فيه رحمة الله تعالى ان تتدارك هذه الامة ؟

واحب محمد في تلك الفترة العزلة ، فكان يشعر في خلوته بجبل حراء بسرور عميق يتزايد يوماً فيوماً ، فكان يقضي هناك الاسابيع وليس معه الا القليل من الغذاء لان نفسه كانت تلتذ بالصوم والتهجد ، وترتاح الى التأمل والتبحر ، واصبح سواء عنده الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وكان يقضي ساعات طوالاً جاثياً على ركبه في جوف الليل او مضطجعاً في عين الشمس ، واحيانا يمشي فى شعاب تلك الجبال ، وبينما كان يسير كان يسمع اصواتاً خارجة من تلك الصخور وكانت تلك الصخور تناديه « يا رسول

الله » وبقي نحواً من تسعة اشهر على هذه الحالة الى ان ضني جسمه وصار يتخلج في مشيه ، وانتشر شعره ، وتغير نظره ومنظره فاستولى عليه الجزع وخشي ان يكون اصابه مس وتحدث الى خديجة بشأنه هذا ، وهو بادي الاضطراب ، ظاهر القلق ، كثير الفزع .

وكانت خديجة تنتظر هذه النجوى بامل ووجل ، وما كانت تقدر على تهدئة قلقه وهي نفسها في قلق عليه ، ولكن هذه المرأة كانت كأنها قد خلقت لتؤيده ، ولتسرى عنه من همومه ، وكانت فيها متانة الحلائل الفاضلات والامهات اللائى بالحنان ، فقد كان محمد افتى منها سناً فعطفت عليه بكل ما في قلبها من الحب والرحمة وازداد حنوها عليه لانها رأته بهذه الحالة من الضعف والهزال ، بعد ان كان ذلك الرجل القوي وذلك الزوج الحبيب ، فكيف يمكنها ان تتأخر عن تثبيت فوأده بكل ما في طوقها من قوة وعزم ..

ويصف درمنغهم حديث الوحي بشيء كثير من الطرافة والاحسان والاعتدال في الاسلوب والوصف ، ويذكر تأييد خديجة لمحمد بن عبد الله لما حدثها حديث الوحي ، وكيف ان شهادة خديجة لرسول الله بصدق الحديث وتأدية الامانة وسائر مكارم الاخلاق ، وتواتر ذلك عنها ، وهي اعلم الناس به واقربهم اليه ، وكيف ان هذا في نظر الكثيرين من اوضح الدلائل على صدق محمد وامانته ..

ويعرض درمنغهم لجنة المسلمين بعد ان يذكر ما جاء في القرآن من وصف النعيم وما في الجنة من الاشجار والمياه الصافية والفاكهة وانهار العسل واللبن ، والحور العين فيقول : ان الناس يأخذون هذه الاوصاف على ظاهرها ، وعلماء الاسلام عدا بعض المتصوفة ، لا يفرقون بين جنة آدم والجنة التي وعد الله بها الابرار ولا يزال هذا الامر ايضاً غير موضح في المسيحية نفسها ، ولا يجب ان يؤخذ من هذا انه لا يوجد في الاسلام من يعتقد بان هذه الاوصاف انما هي رموز واشارات ، وكذلك لا يؤخذ منه ان جميع ملاذ الآخرة هي حسية ، فقد جاء في القرآن ما يفيد ان افضل النعيم هو مغفرة الله لآثام البشر ، ثم سلام الله وصلواته على المتقين ، والوجود في الحضرة الالهية ، وقد قال محمد كما قال القديس بولس :

« ان الله قد اعد لعباده مالا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . »

وقد اردنا بنشر هذه الفقرة ان نفضي للقارىء بقول احد المسيحيين الافرنسيين في الجنة ، لان كثيراً من قومه يعيبون القرآن في الوعد الذي فيه للمتقين باللذات الحسية ، وينسون ان الخلق لا يفهمون غيرها ، وينسون ما في القرآن من الآيات الدالة على ان اعظم النعيم هو رضا الله « ورضوان من الله اكبر »

وان رؤية الحق جل جلاله هي مما وعد به اهل الجنة ، وقد

ذكر المؤلف شيئاً آخر، وهو ان القرآن اذن للمسلمين في الزواج بالمسيحيات، وان هذا كما قال الشيخ محمد عبده، من علامات لاخاء، وان في الاسلام مبادىء كثيرة قد اعتقدت بها النصرانية وايدتها ...

والواقع ان المؤلف يحاول كثيراً وفي كثير من صفحات كتابه ان يظهر لنا انه لا اختلاف هناك بين الاسلام والمسيحية، فيذكر اعتراف القرآن بنبوة المسيح، وطهارة مريم وغير ذلك من الامور، محاولاً التأليف بين الاسلام والمسيحية الى ان يقول: «ان نفساً قوية طاهرة كنفس محمد على اتصال مع الحقائق التي احسها هذا الرجل في نفسه اثناء خلواته العظيمة في الصحراء والجبال كانت تشعر بان الديانة ليست عبارة عن تأمل مجرد وعن محاضرة ملقاة، بل هي حقيقة يراها الانسان من نفسه، وكل انسان يمثل الله تعالى كما يستطيع ويقدر، والامر المهم ان يكون مليئاً شعوراً بالحقيقة الالهية وان يسلم نفسه لله وهذا هو الاسلام»

ويأتي المؤلف بعدها على الهوة التي احتفرت بين الاسلام والنصرانية، ويعترف بان السبب الاكبر فيها يعود للمسيحيين الذين كانوا يحتقرون الاسلام بلا تأمل ولا بحث، ويسرد لنا طائفة من اقوالهم، ويذكر كيف طال امد هذه البغضاء وهذه الاباطيل وكيف انه ما يزال منها بقية حتى يومنا هذا.

ثم قال درمنغهم : ان الفتوحات الاسلامية كانت جزاءً وفاقاً للمسيحية الشرقية التي استرسلت الى المجادلات الدينية وطالما كان في العقاب فوائد ، فان ظهور المسلمين في الشرق اهاب بالمسيحيين في اوروبا الى الاتحاد لانهم وجدوا انفسهم يواجهون خطراً داهماً اذا لم يعمدوا الى اصلاح انفسهم ..»

والواقع ان درمنغهم كاتب يشكر على اعتداله ، وفي كتابه معلومات كثيرة يجدر بالمسلمين الاطلاع عليها خصوصاً هذه الاكاذيب التي بقي الافرنج قروناً متطاولة يروجونها في حق محمد ابن عبدالله ، ليصرفوا انظار شعوبهم عن الاسلام ، واعتراف المؤلف المسيحي الكاثوليكي بان المسيحية هي التي بدأت بالعداوة واضرمتها اعتراف يدل على اعتداله ونزاهته ، ولعله كان يرى هذا غريباً جداً من قوم يأمرهم دينهم بمحبة اعدائهم !!!

....

ويذكر درمنغهم رسول الله في منزله فيقول : « ان محمداً لم يكن شرهاً ولا فخوراً ، ولا متعصباً ولا منقاداً للمطامع ، بل كان حليماً رقيق القلب عظيم الانسانية واحياناً متردداً اذا لم يكن ثمة عنده ما يعتقده وحياً الهياً ، وكان بشوشاً دمث الاخلاق حسن المعاشرة ساذج المعيشة يكنس غرفته بيده ويصلح ثيابه ، ويخصف نعله ، ويحلب شياهه ، ويضطجع في ارض المسجد وينهض ويفتح

الباب لهرة تريد ان تدخل ، و يعالج ديكاً مريضاً ، ويمسح بيردنه عرق جواده ، ويوزع الصدقات ما كان لديه مال ، و يتجنب كل شيء يظهر فيه بمظهر ملك دنيوي . . و كان يمنع الناس ان يجعلوه سيداً ، ولم يكن عنده بلاط ولا وزراء ولا شيء من ابهة الملوك ، وانما كان عنده بعض اعوان يستشيرهم و بعض كتبة يكتبون له وخاتم من فضة منقوش عليه محمد رسول الله . . .

« و كان محمد يقضي اكثر اوقاته في الصلاة سواء في الخلوات وغير الخلوات وفي الوعظ وفي الشغل ، و يقضي نصيباً من وقته مع نسائه و كان محمد يحب الاطفال كثيراً ويلعب معهم ويترك اولاد بنته يركبون على ظهره حتى في الصلاة ويلعبون على المنبر وهو يخطب ، و كانت مرة فتاة لابسة قميصاً اصفر تلعب بين يديه وهو يداعبها ويمدح لها ذلك القميص ويستحسنه فمدت اصبعها الى ما بين منكبيه ولمست الشامة التي يقال لها خاتم النبوة ، فانتهرتها والدتها فقال لها محمد : دعيها . .

ولازم أنس خادم محمد مولاه عشر سنوات فكان يذكر عجيب صبره ، ويقول انه ما وبخه ولا مرة واحدة خلال مدة خدمته له ، و كان حسن المعاشرة للجميع الا انه كان يحب المحافظة على خلواته وقد نهى القرآن عن الدخول على الرسول بدون اذن منه ، وعن منادانه من وراء الحجرات

وقال درمنغهم : انه لم يخلق حتى اليوم رجل اطاعه انصاره كما اطاع العرب محمدا ، وان من معجزات محمد جمع العرب في دائرة الاسلام ، وكانوا من اصعب الامم تذليلاً وقيادة ، واقل الجماعات طاعة وقبولا للحكم والسلطان ..

اما نزاهة محمد الشخصية فكانت مثلاً يقتدى به

ويقول : لاجرم ان محمدا قد نهض داعياً العرب الى الدين الوحيد اللائق بالاله الواحد ليوقظ بدينه هذا جانباً من آسيا وافريقيا ويحطم قيود التقليد ، وينبه فارس التي كانت نائمة في وثنيتها ، ونصرانية الشرق التي كانت ممزقة بالمجادلات الدينية ، ولا جدال في ان الانبياء في العالم هم اشبه بالقوى الطبيعية المحسنة العظيمة التي هي من قبيل المطر والشمس والزوابع التي تهز الارض ، ثم تملأها خضرة ونضرة ، فيجب على الناس ان يعرفوهم بثمرات اعمالهم واصدق الشهود عليها هي الصدور الثالجة باليقين والقلوب المطمئنة ، والعزائم الناهضة والنفوس الصابرة على البلاء والاسقام الاديبة الزائلة ، والصلوات الطاهرة الصاعدة الى السماء ، وكذلك ظهر محمد لا يعرف شيئاً من العلوم غير العلم الاعلى ، امياً طاهراً ساذج الطبيعة طليقاً من قيود الاوهام ..

ولقد جاء محمدا في اشد الاعصر ظلمات وجهالة ، حين كانت الديانات باجمعها قد تداعت الى الخراب من بلاد الغال (فرانسا) الى

الهند ، وكان الاضطراب شاملاً ، فتسمى محمداً وتلقب بالنبي الامي وكان يرى نفسه اداة للوحي ، ومبلغاً واعياً يسمع ما يلقى اليه من فم الشخص النوراني (الذي يشاهده) ومن هـذا الصوت الذي يسمعه فيلقيه الى الناس ، وهذا الوحي هو الكلمة الالهية القديمة المحفوظة في السماء ، وانما اتخذت بالقرآن قالباً ارضياً .. الى ان يقول : اننا نرى القرآن نازلاً بحسب الوقائع موحى به يوماً فيوماً وشيئاً فشيئاً وفاقاً للضرورات ولمصلحة الامة ، وكانت الرسالة في نظـر محمد اسمى من الرسول وكانت سورة واحدة من كلام الله افضل من النبي وعترته ، ولما كان لكل نبي معجزة كانت معجزة محمد القرآن . ومما لا يقبل الشك اليوم ان في القرآن من سحر البيان مالا يوجد في كلام غيره على الاطلاق ، وان فيه من قوة التأثير والعمل في القلوب .مالا يبرح الى اليوم سراً مغلقاً حتى انه ليقذف بالخشوع في قلب اقل الناس خشية وابعدهم عن التقوى ،وكان محمد يتحدى عبقرية العرب ان يأتوا بسورة من مثله ، ولم يكن اعجاز القرآن في مزيته اللغوية من جهة ما يسمى اليوم بالادب ، وانما كان في شدة التأثير وعجز الناس عن الاتيان بمثله

والواقع انه لم يبق ادنى شك في صدق محمد ، فان جميع حياته تدل على ذلك ، وانه كان معتقداً كل الاعتقاد برسالته وبالوحي الذي كان يوحى اليه

وكانت عظمة محمد الحقيقية هي العظمة الآتية له من الله بالالهام الالهي الذي كان يقذف في روعه ، واما فيما عدا ذلك فكان يشعر بضعفه وعجزه ، وكان يتهجد الليل ويستغيث بالله ويسأله تعالى دائمًا ان لا يخذله ، وقالت له زوجته ام سلمى مرة : « لماذا لا تفتأ تقول هذا وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » ، فاجابها : كيف لا اخشى الله وقد تخلى مرة عن يونس ، وكان يدعو الله قائلاً : اغفر لي ذنوبي الحاضرة والماضية والظاهرة والباطنة وطهرني من اثامي تطهير الثلج واغسل قلبي كما يغسل الثوب واجعل بيني وبين الاثم مسافة ما بين المشرق والمغرب ..

....

وقال درمنغهم : ان محمداً خلق آمراً ناهيًا لكنه لم يكن يتقاضى الناس الطاعة لاوامره الا كواسطة يبلغهم اوامر الله تعالى ، وكان يقول : ان الامر لله وحده ، وكان ينهي الناس ان يعاملوه معاملة الملوك ، وقد ظن بعض من كانوا من اعدائه في البداية انه بعد افتتاح مكة ستنقلب النبوة الى ملك زمني ، ولكنهم اخطئوا في زعمهم ، وبقي محمد على مشربه الاول من سذاجة الحال ، وكان يقول : لست ملكاً ولكنني رجل من قريش ، ولم يسكره الظفر بل عف عند المقدرة ، ولم يكن المال ولا شيء من غنائم الدنيا ذا قيمة في نظره ، وكان يفضل عليها كلها اهتداء رجل واحد الى

الاسلام ، ولم يكن يؤمله غير شيء واحد كان يجده في اعماق نفسه، وهو عدم فهم الكثيرين للمقصود من رسالته وانضمام كثيرين اليه لا حبًا بها بل التحاقًا بالحزب الغالب

وختم درمنغهم كتابه بقول الاب (دوبروغلي) في كتابه (اسرار تاريخ الديانات) وهو : « جاء في التوراة انه من اسماعيل يخرج شعب عظيم » فانتشار الاسلام هو من جملة ما انجز الله به وعده لابي المؤمنين ...



٣

رسول الله

في نظر جماعة من المستشرقين المنصفين

يقول جيلمان الكاتب الانكليزي : بان « محمداً كان صادقاً في دعوته، مخلصاً في رسالته ، طاهراً في اعماله واقواله .

وقال غروسه صاحب « مدنيات الشرق » « كان محمد لما قام بدعوته شاباً كريماً نجداً ملآن حماسة لكل قضية شريفة ، وكان ارفع جداً من الوسط الذي كان يعيش فيه ، وكان العرب يوم دعاهم الى الله منغمسين في الوثنية وعبادة الحجارة ، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية الى التوحيد الخالص البحت ، وكانوا يفنون في الفوضى وقتال بعضهم بعضاً ، فاراد ان يؤسس لهم حكومة ديموقراطية موحدة ، وكانت لهم عادات وحشية تقرب من الهمجية فاراد ان يلطف اخلاقهم ، و يهذب من خشونتهم »

وقال « مونته » الاستاذ في جامعة جنيف في كتابه (محمد والقرا ن) « اما محمد فكان كريم الاخلاق حسن العشرة ، عذب الحديث صحيح الحكم صادق اللفظ ، وكانت الصفات الغالبة عليه صحة الحكم وصراحة اللفظ والاقتناع التام بما يعمله

و يقوله ، وان طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه المقصد بما يتجلى فيها من شدة الاخلاص ، فقد كان محمد مصلحاً دينياً ذا عقيدة راسخة ، ولم يقم — الا بعد تأمل كثير وبعد ان بلغ سن الكمال — بدعوته الدينية العظيمة التي جعلته من اسطع انوار الانسانية في الدين

ثم ذكر مونته اركان الاسلام كالصلاة والزكاة والصيام والحج وقال : ان حكمة الصلاة خمس مرات في اليوم هي في ابقاء الانسان من الصباح الى المساء تحت تأثير الدين بحيث يكون دائماً بنجوة عن الشر ، وحكمة الصيام تعويد المؤمن غلبة شهوات الجسم وزيادة القوة الروحية في الانسان ، وحكمة الحج توطيد الاخاء بين المؤمنين وتمكين الوحدة العربية

وهذا هو البناء العظيم الذي وضع محمد اساسه ، وما يزال ثابتاً برغم عواصف الدهور

وقال (غولد سهير) وهو من اكابر المستشرقين في كتابه « عقيدة الاسلام وشريعته » : « ان دعوة النبي العربي كان فيها نخبة مبادىء دينية اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ، وروّج لها بين قومه ثقة منه انها ضرورية لتثبيت سير الانسان وفاقاً للارادة الالهية ، وقد تلقاها محمد بصدق وامانة معتقداً كل الاعتقاد انها من الله »

وهذا القول ليس فيه ما يدعو الى الانكار ، وما جاء القرآن الا مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل ، والاسلام انما هو ملة ابراهيم حنيفاً وقد جاء رسول الله مؤيداً لهذه الملة الابراهيمية

وقال (ماكس مايرهوف) في كتابه (العالم الاسلامي) :
«لقد اراد بعضهم ان يرى في محمد رجلاً مصاباً بمرض عصبي ولكن تاريخ حياته من اوله الى آخره ليس فيه شيء يدل على هذا كما ان ما قام به فيما بعد من التشريع والادارة يناقض هذا القول

ويقول (غود فروادمبو مبين) و (بلاتونوف) في (تاريخ العالم) وقد اشتهرا بكثرة التمحيص والتدقيق : انه لايزال اصل النصرانية مجهولاً ، الى ان يقولا : ليس من الممكن الجزم بصورة حقيقية لمحمد ، ولا بصورة حقيقية لاحد من كبار رجال العالم ، وغاية ما نقدر ان نجزم به هو تبرئة محمد من الكذب والمرض ، وانما كان محمد رجلاً ذا مواهب الهية عليا ، ساد بها ابناء عصره ، وهي رباطة الجأش ، وطهارة القلب ، وجاذبية الشمائل ، ونفوذ الكلمة وكان عابداً عظيماً ، وهو نظير جميع العباد العظام ، كان يجمع بين حرارة الاعتقاد بالرسالة التي هو مأمور بها من جانب الحق تعالى وبين ملكة الاعمال الدنيوية ومعرفة استخدام الوسائل اللازمة لنجاح تلك الرسالة

اما (ولز) الكاتب الانكليزي الشهير فبرغم خروجه عن

الحق في كثير من بحوثه عن الاسلام يقول : ان ديانة محمد كان فيها روح حقيقية من العطف والكرم والاخاء وكانت بسيطة مفهومة سائغة ، وكانت ملأى بمكارم الاخلاق ، وعلو النفس والمعالي التي يشغف بها اهل البادية

ويؤيد (هوار)مؤلف (تاريخ العرب) كلمات ولز وغيره من ان محمداً كان في الدرجة الاولى من شرف النفس ،وكان يلقب بالامين اي بالرجل الثقة المعتمد عليه الى اقصى درجة ، وانه كان المثل الاعلى في الاستقامة

واما الملحد (فولتير) الفيلسوف الافرنسي الشهير فقد قال عن (لوثير) و (كلفين) موسسا البروتستنطية « انهما لا يستحقان ان يكونا (خدما) لمحمد » وفولتير مفكر عظيم وكلمته هذه تدل على اكباره لمحمد كل الاكبار

....

وفي الواقع ان حادث الفتح الاسلامي الذي انسق بمثل هذه السرعة كان شيئاً رائعاً فخماً ليس في تاريخ العالم ما يدانيه او يماثله ، وقد ذهب بعض المؤرخين يعرضون لهذه الظاهرة بكثير من البحث والتبسط ، واما نابليون الامبراطور الافرنسي ونابغة الفن العسكري فيقول : ان العرب كانوا ذوي بصائر بالحرب ، اكثر مما يظهر للناس ، وان حروب القبائل بعضها مع بعض قد صيرتها

امة محاربة من الدرجة الاولى ، وهذا القول وان كان يحتاج الى كثير من التفسير ، ولا يتعلق مع الحقيقة الا بمقدار ، فانه يدل دلالة واضحة على الذهول الذي يستولي حتى على عظماء الرجال حين يدرسون الفتوحات الاسلامية العجيبة ، ونابليون يوفر القسط الاعظم من الحرمة الشخصية لمحمد صلوات الله عليه، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويرى انه ما انتشر الاسلام الا بفضلهما ، ولقد بلغ من اعجابه بمحمد انه نوى وهو في مصر ان يدين بالاسلام ، وان يحمل عليه جيشه ، ولقد سأله عن ذلك المؤرخ (لاكاز) الذي رافقه الى منفاه في جزيرة (سنت هيلانه) وقيد جميع ما وعاه من احاديثه ، فاعترف له بانه كان عازماً على الاسلام ، ولكنه لم يكن يريد ان يفعل ذلك قبل ان يصل بجيشه الى الفرات ، بحيث يتمكن باسلامه من الاستيلاء على الشرق

وهناك وثائق رسمية عن اسلام نابليون نقلها المسيو (اتيان دينه) المسلم الافرنسي ، منها وثيقة مؤرخة في ٢٦ آب ١٧٩٨ كتبها نابليون وهذا نصها « اني اشكرك على ما قمت به من تعظيم نبينا : الامضاء بونابرت » وهو يعني بذلك محمد بن عبدالله .

وهناك وثيقة اخرى مؤرخة في ٢٨ آب ١٧٩٨ ونصها : « اني ارجو ان لا يطول الوقت حتى اجمع جميع عقلاء البلاد ومهذبيها ، واقرر معهم نظام الحكم مبنياً على مبادىء القرآن

التي هي وحدها المبادىء الحقيقية ، والتي هي وحدها الكفيلة بسعادة البشر ، الامضا : بونابرت »

وقال نابليون في مناسبة اخرى بكتاب ارسله الى احدهم ، والمظنون ان المرسل اليه هو احد كبار المسلمين في مصر ما يلي :
« حقاً لقد قلت لكم مراراً واعلنت مراراً في خطبي اني انا مسلم موحد امجذ النبي محمداً واجد المسلمين . الامضاء : بونابرت »

والذي يعلم تاريخ نابليون يفهم ان رجلاً كهذا اوتي من القدرة العقلية ومن العزيمة اقصى ما قدر لابطال العالم ، لا يعجب بالاسلام هذا الاعجاب كله ، الا بعد اقتناعه بان هذه الفتوحات المادية والمعنوية التي قام بها الاسلام في ذلك الوقت القصير ، كان حادثاً غير مسبوقاً حد النظر في تاريخ العالم ، وبان فضائل الاسلام ونبيه كانت من القوة والظهور بحيث لا يستطيع احد انكارها

....

وقال دوكاستري نقلاً عن الكاتب (ريفيل) : اننا اذا نظرنا الى الزمان والمكان اللذين وجد فيهما محمد لم نجد اصلاحاً اشرف ولا اجرأ من الاصلاح الذي قام به بحق النساء ، فالمرأة في الشرق مديونة كثيراً لمحمد ...

واما البرنس كيتاني الايطالي فيقول ان محمداً من افراد

العالم ذوي العبقرية الرائعة والفكر الحر ، وقد افضى الى الانسانية بخدمة ليس من يستطيع انكارها ابداً

ويقول مرغوليوث الانكليزي : ان الاسلام دين قد اوحى الى العرب بطراز من التفكير الحر ، وافضى اليهم بكثير من التراث الديموقراطي الرفيع المانع

وقال الكاتب الافرنسي (ديسون) الذي ننشر خلاصة كتابه في ما يلي من فصول :

« من الخطأ ان يصدق المرء ما يروج له البعض من ان السيف كان المبشر الاول من تقدم الاسلام وتبسطه ، ذلك ان السبب الاول في انتشار الاسلام يعود الى هذه الاخوة الدينية الفريدة ، والى هذه الحياة الجديدة الاجتماعية التي دعا اليها ومكن لها ، والى هذا الايمان القوى الذي راح يدفع المسلم غازياً فاتحاً من اقصى الارض الى اقصاها ، ثم الى هذه الحياة الشريفة الطاهرة التي راح يحياها محمد وخلفاؤه من بعده والتي بلغت من العفة والتضحية حداً جعل من الاسلام قوة عظيمة لا تغلب

وما زال الاسلام يتقدم غازيا فاتحا في كل موطن يحتاج الى الفتح والغزو ، و كلما تقدم تنهار امامه الديانات القومية ، وهو في تقدمه هذا العجيب لا يرتد عن ارض راح يفتحها ويغزوها بعقائده وتقاليده وبساطة تعاليمه ، وهذا امر يعرفه المبشرون الذين حاولوا

غير مرة ان يحملوا بعض القبائل التي تقبلت الاسلام على قبـول المسيحية ، فكانوا دائما يرتدون فشلين منكسرين ، ومما يجب ان يذكر ان كثيراً من القبائل التي راحت تقبل المسيحية اولاً ، تتركها وتتقبل الاسلام دينا حين تتصل بالمسلمين ، وليس يذكر التاريخ المعاصر ابداً ان قبيلة مسلمة ابدلت دينها واعتنقت ديناً غيره خصوصا والاسلام يحمل اليها دينا رائعا وحياة اجتماعية اخلاقية رفيعـة

وليس يصح ان ينظر الى دين محمد كدين مليء بالخرافات والاكاذيب ، فهذا مخالف للحقيقة بعيد عن الواقع فالتعاليم الاسلامية شريفة سامية ، والاخلاق رفيعة عالية ، وفي الاسلام من العقائد والآراء ما يستحق احترام الفلاسفة وعلماء الاجتماع . »



— ٤ —

مولد النبي ونشأته

ولد محمد (عليه السلام) في مكة سنة سبعين وخمسمائة بعد الميلاد وبعد وفاة والده عبد الله بشهرين، وكانت الليلة التي وضعته امه فيها عجيبة حقاً، فقد اسرع الى مؤاساتها عند الوضع نساء بني هاشم، فقضين معها الليل كله، وشهدن فيها ما اعجبهن وادهشهن ولم تكن والدة النبي اقل صويحباتها اكباراً ودهشة، واعجاباً وانكاراً، فقد كانت ترى في ما يرى النائم ان نوراً خرج منها فاضاء قصور بصرى من مشارف الشام، ثم راح يسوي الارض امامها ويضيء لها ما حول الشام من مواطن وامصار، واذا بالسماء غير السماء والارض غير الارض، واذا بهما مليئتان بالنور مشرقتان مضيئتان، واذا نجوم السماء تدنو من الارض حتى لكأنها تريد ان تلم بها، وتجلس على اديمها . . .

ويشب الفتى، وان للسماء فيه لرأيا، فيظل في حجر آمنة امه ما يشاء الله ان يظل، حتى تصدر المراضع عن البادية، وتمشي الى

مكة ، يطلبن من فتيانها من يتولين تربيته والعناية بامره ، كما هي العادة عند العرب ، وكانت بينهن حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية خرجت على اتانها تقصد مكة تلتمس الرضعاء كصويحباتها ، فيعرض عليهن محمد فتأباه كل واحدة منهن ، اذا قيل له انه يتيم ، ذلك انهن انما كن يرجون المعروف من والد الصبي ، فاذا كان الصبي يتيما فلا فائدة من هذا المعروف ، ولا امل في شيء من الوفر والمال .

وترى حليمة نفسها دون ما رضيع ، وقد حملت كل واحدة من صويحباتها واحداً ، فتعود ادراجها الى اليتيم تأخذه ، لئلا يقال انها تعود وليس عندها ما توفر لسواها ، وقد كانت حليمة وزوجها في شظف من العيش كثير ، وفي وابل من الفقر وفير .

ويشب الفتى في مواطنه الجديدة في البادية ، فتغمر البركة مرضعته ، ويستفيض الخير في ما لديها من شاء وابل ، ثم يعود الى امه فلا تستقيم معه حتى تتوفى في الابواء وهي قرية بين مكة والمدينة ، فيتولاه جده عبد المطلب بعنايته وعطفه ، فاذا انتقل هذا الى ربه شمله عمه ابو طالب بمثل ما يشمل به ولده من حنان وعطف وبر ومعروف

ويذهب اليتيم مع عمه الى الشام في تجارة له ، فاذا اصبح فتى

فشا بين قومه صدق حديثه وعظم امانته وكرم خلقه ، فتعلم بامره خديجة بنت خويلد وهي من سيدات قريش ، فتعرض عليه ان يخرج في مال لها الى الشام تاجراً ، وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من التجار ، فيتقبل محمد ذلك ويذهب في تجارتها الى الشام ثم يكر راجعاً الى مكة ، وقد وفق في تجارته هذه كل التوفيق .

وتسر خديجة ويبلغها الشيء الكثير عن محمد واخلاقه واستقامته فتعرض عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ اوسط نساء قريش واعظمهن شرفاً واكثرهن مالا ، وكان كل رجل من قومها حريصاً على زواجها لو يقدر عليه ، وتقبل به ، فلما تحدثت الى محمد بعزمها ذكر ذلك لاعمامه فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن اسد فخطبها اليه فتزوجها ، واصدقها محمد عشرين بكرة ، وكانت اول امرأة تزوجها ولم يتزوج عليها غيرها في حياتها

وتمضي السنون وليس في حياة محمد ما يستحق ذكراً او يستلفت نظراً ، فقد كانت سنين هادئة ناعمة لا يضطرب فيها حديث ولا حادث ، يمضي فيها محمد وقته وما بين حاشيتي نهاره اما في تجارة لزوجه او في حوار وحديث مع رجالات مكة في عهده ، ويذهب المسيو ديسون الى ان بعض المؤرخين يذكر عن

محمد في ما يذكره انه كان كارهاً للاصنام ، بعيداً عن عبادتها والتقرب منها ، وان كان لا يعلم انه سينشيء في مقبلات الاعوام ديناً يبدل الارض غير الارض ، ويحدث في العالم ظاهرة جديدة لا تزال آثارها بعيدة المدى ، عظيمة الخطورة والمصاير

***

فلما بلغ الاربعين من عمره راح يخلو بنفسه اياماً ، ولم يكن شيء احب اليه من ان يخلو وحده بنفسه ، وكانت له عادة ان يخرج لغار حراء وهو جبل على مقربة من مكة ، ينصرف فيه لنفسه ويتعبد فيه وحده ، فلما كانت السنة الاربعين جاء الى خديجة زوجه من خلوته هذه مضطرباً قلقاً وقال لها :

— لقد جائني جبريل الملك هذا الليل فقال لي : اقرأ ؟ فقلت ما انا بقارىء ، فكرر علي ذلك ثلاثاً ثم قال لي في الثالثة :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم »

فقالت خديجة : ابشر يا ابن العم واثبت فو الذي نفس خديجة بيده اني لارجو ان تكون نبي هذه الامة

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها وانطلقت الى ورقة بن نوفل بن اسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عمها ، وكان ورقة قد تنصر وقرأ الكتاب وسمع من اهل التوراة والانجيل ، فاخبرته بما اخبرها

به محمد انه رأى وسمع

فقال ورقة : والذي نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني ياخديجة لقدجاء الناموس الاكبر الذي كان يأتي موسى وانه لنبي هذه الامة ، فقولي له فليثبت

فرجعت خديجة الى محمد فاخبرته بقول ورقة ، فاطمأن وراح يطوف بالكعبة سبع مرات ، ومنذ ذلك الوقت لم يعد ينقطع عنه الوحي ابداً

ولقد حدث مرة ان فتر الوحي عنه فترة فشق ذلك على النبي واحزنه فجاءه جبريل بسورة يقسم له فيها ربه وهو الذي اكرمه بما اكرمه به ما ودعه ربه وما قلاه .

قال تعالى : « والضحى والليل اذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ، وللآخرة خير لك من الاولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالاً فهدى ، ووجدك عائلا فاغنى ، فاما اليتيم فلا تقهر . واما السائل فلا تنهر ، واما بنعمة ربك فحدث »

ومضت اعوام ثلاثة ومحمد يدعو فيها من يأمنهم من قومه ، ويستخلصهم من عشيرته الاقربين الى الاسلام فلم يتقبل دعوته الا اقلهم ، ثم امره الله باظهار دعوته ففعل ، فكان يلاقي الذين اسلموا من قريش عناء كثيراً وشراً وبيلاً

ووثبت كل قبيلة فيها على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، وامتنع النبي عنهم بعمه ابي طالب وآل هاشم ، وكان جواب النبي على هذه المظالم والعناء والايذاء ينزل به من قومه ، الصبر الجميل والجواب اللطيف الرقيق ، فلما توفيت خديجة وابو طالب زاد ايذاء قومه له ولاصحابه بعد ان هلك من كان يدفعهم عنه ، ويردهم عن ايذائه

وكان قوم من المدينة قد استمعوا الى النبي يعرض عليهم الاسلام لما قدموا مكة للتجارة وغيرها من الشؤون ، فيتقبلونه منه دينا ويذهبون الى المدينة ينشرونه فيها ، ويذيعونه بين قومهم ورجالاتهم ، فلما احس النبي ازدياد البلاء عليه وعلى المسلمين ، وعلم ان مكة قد اعتزمت قتله وتشريد قومه ، رأى رحمة بالمستضعفين من المسلمين ان يغادرها الى المدينة ، حيث كانت له عصبة تحميه وتعصمه ، فتقبله اهل المدينة من المسلمين بالترحاب والهتاف والاهازيج

***

وبهجرة النبي الى المدينة ، ينتقل الاسلام من دين مستضعف الى دين تؤيده عصبة قوية ، وتحميه سيوف ماضية وقلوب جريئة وافئدة يغمرها الحماس تريد ان يعلو هذا الدين الجزيرة كلها ، وان يلم هذا الخير العرب كلهم من اقصي الجزيرة الى أقصاها ، لقد

كان رجالات المدينة فرقاً واحزاباً ، فوحد الاسلام بينهم ، واقر العدل في ربوعهم والانصاف في مواطنهم ، فلم لا يتوفر هذا الخير على الجزيرة كلها ولم لا ينالها مثل ما نالهم ، فتصبح الجزيرة قوة ويصبح العرب شيئاً خطيراً

ولقد كان حتماً على النبي بعد نزوله الى المدينة وتأييد سكانها له ان يناصب اهل مكة جماعة المسلمين العداء الذين اخرجوهم من ديارهم وآذوهم في دينهم ، وان تشتد هذه الخصومة حتى تتصل منها الى السيف الذي يخرج من غمده في عدة معارك وغزوات اصبح النبي معها على مثل اليقين من ان العرب جميعها لن تطمئن الى دعوته وتؤيده الا ان يدخل مكة فاتحاً ، وهي كعبة العرب ، وسيدة مدن الجزيرة

ولقد راع اهل مكة وبهرهم ما شاهدوه من منزلة النبي بين صحبه وانصاره لما مشى المسلمون الى مكة يريدون العمرة فابى عليهم اهلها فكروا راجعين ، اقول شد ما راعهم وبهرهم اكرام المسلمين لنبيهم واحترامهم له ، فراحوا يقولون هذا اكرام واحترام لم يظفر بهما كسرى ولا قيصر ، لقد كان النبي اذا راح يتوضأ لا يدع المسلمون قطرة من الماء تسقط الى الارض ، يتناولونها بايديهم وانفسهم ثم يمسحون بها وجوههم تبركاً واحتراماً ، وهو شيء جديد لا عهد للعرب بمثله في هذه الجزيرة التي كان الفرد الواحد منها سيد

قومه ورأس عشيرته ، فاصبحوا بنعمة الله اخوانا يؤمنون بالله ويرفعون رأساً الى السماء ماتعنو الا لعظمة الله جل جلاله ، ولرسوله هذا النبي العربي الذي اعزهم بعد ذل واغناهم بعد فقر ، وخلق في روحهم وانفسهم شيئاً جديداً فيه روعة وجدة وخيلاء ، وفيه سلطان كبير

لقد اضطر محمد الى السيف قسراً ، ولو تركه العرب وشأنه لفضل البرهان يقرع به اسماعهم صباح مساء بان الله واحد ، وان محمداً رسوله ، ولكن العرب راحت تؤذيه وتؤذي اصحابه ان يقولوا ان الله ربنا وربكم

واذن فلا بد لمحمد وانصاره ان ارادوا نشر اسم الله وذيوع هذا الدين الجديد، ان يدفعوا العدوان بمثله ، وكذلك اضطر محمد الى السيف يقتحم به مواطن الكفر والبهتان ، ويدفع به عدوان قومه وايذاء الاعراب في الجاهلية ، فان مكن الله له في النصر تقبله حامداً شاكراً ، وان ناله فشل حمد واثنى ، وشدد من عزائم اصحابه وبعث في روحهم الجرأة والامل ، بانهم واصلون الى اغراضهم ولو كره الكافرون

ويمكن الله لمحمد من اقتحام مكة فيدخلها على رأس عشرة آلاف من المسلمين فلا يعرض لاهلها الذين آذوه واصحابه بسوء ولا يأمر رجاله بالفتك بهم ويغرق في الحلم اغراقاً لم تشهد العرب

مثله في الجاهلية ولا بعد الاسلام ، فيعاملهم بالحسنى ، ويزيدهم بسطة في العطاء ويفضلهم في العطاء حتى على الانصار والمهاجرين من رجاله وانصاره الاولين ، والحديث عن حلمه وجوده وعفوه عند المقدرة اكثر من ان نأتي عليه وحسبك صبره على قريش كما قدمنا ومصابرته الشدائد الصعبة معهم ، فلما اظفره الله عليهم وحكمه فيهم عفا عنهم وقال : انتم الطلقاء

ويبعث بعد ذلك محمد بكتبه الى ملوك عصره ، ويصل كتابه الى كسرى عظيم الفرس فيمزقه ، وهو لا يدري انه بتمزيقه كتاب النبي قد مزق ملكه بيده ، وان العرب مقتحمون ارضه وامصاره وان امبراطوريته صائرة بعد سنوات قريبة الى الزوال والانهيار تحكم شيعة محمد بالامر فيها ، ويستقيم لهذا الدين سلطانه بين امصارها وانها قد لا تكون بعد اليوم وفي عهد الامبراطورية العربية المقبلة غير مصر من الامصار العديدة التي يسيطر عليها خليفة المسلمين من مثل المدينة او الشام او بغداد

***

وتنتهي حياة النبي (عليه السلام) بعد عودته من حجة الوداع ، وقد احس بعدها بالمرض ينتابه في فترات ، ثم اشتدت وطأته عليه فحبس نفسه في منزله ثم في غرفة لعائشة زوجه وهو يشكر الله ان ارسله للعالمين رسولاً فاتبعته معظم الجزيرة العربية ،

وبلغ الدعوة الى اكثر ملوك الارض ، ذلك ان الاسلام لم يكن ديناً للعرب ، وانما هو دين الانسانية من اقصى الارض الى اقصاها

ولقد راح الكتاب المسلمون يصفون النبي (عليه السلام) فما تركوا ناحية من صفاته واخلاقه الا عرضوا لها واشاروا اليها، وليس في وصفهم هذا لنبيهم شيء يتصل بالمعجزات ، ولا بما هو فوق الطبيعة ، كان محمد ممتازاً بجمال خلقه واخلاقه ، وقد كان بعض الذين يدعوهم الى الاسلام لا يحتاجون الى دليل على صدقه فوق ما هو معروف عندهم من اخلاقه السابقة وصدقه المتواتر عند الجميع في مكة وغير مكة . لقد كان واحدهم اذا اراد ان يأتمن احداً على مال او غيره ، فلا يرى غير محمد خليقاً بمثل هذه الامانة ، وذلك قبل الاسلام وبعده ، وقد كانت زوجه خديجة تعرف فيه ذلك وليس اعلم من الزوجة بزوجها ، فلما جاءها بخبر الوحي ، مضطرباً خائفاً وجلاً لاول عهده به قالت له :

– ما كان الله ليخزيك ابداً انك تحمل الكل ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق

وكان نظيفاً ومن اكثر الناس حياء واكثرهم عند العورات اغضاء ، كان اشد حياء من العذراء في خدرها ، وكان اذا كره شيئاً عرفه اصحابه في وجهه ، لطيف البشرة رقيق الظاهر ، لايشافه

احداً بما يكره حياء و كرم نفس

و كان من اوسع الناس صدراً واصدقهم لهجة والينهم عريكة واكرمهم عشرة ، و كان يؤلف الناس ولا ينفرهم ويكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ويحترس منهم ، يتفقد اصحابه ويعطي كلا من جلسائه نصيبه لا يحسب جليسه ان احداً اكرم عليه منه ، ومن جالسه او قاربه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف عنه ، ومن سأله حاجة لم يرده الا بها او بميسور من القول ، وسع الناس بسعة صدره وخلقه ، فصار لهم اباً وصاروا عنده في الحق سواء دائم البشر سهل الخلق لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه . يجيب من دعاه ويقبل الهدية ويكافئ عليها . قال انس خادمه خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرين سنة فما قال لي اف قط . . . وما قال لشيء صنعته لمَ صنعته ؟ ولا لشيء تركته لمَ تركته ؟

و كان يمازح اصحابه ويخالطهم ويحادثهم ويجيب دعوة الحر والعبد والامة والمسكين ويعود المرضى في اقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر و كان يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ اصحابه بالمصافحة يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه او آثره بالوسادة التي تحته ويعزم عليه في الجلوس عليها ان ابى

كان اكثر الناس تبسماً واطيبهم نفساً ... ولما قدم عليه وفد النجاشي قام عليه السلام بنفسه يخدمهم

فقال له اصحابه : نحن نكفيك ..

فقال لهم : كانوا لاصحابنا مكرمين واني احب ان اكافئهم .

وكان من اشد الناس تواضعاً واقلهم كبراً ، يعود المساكين ويجالس الفقراء يجيب دعوة العبد ، ويجلس بين اصحابه مختلطاً بهم حيث انتهى به المجلس جلس

***

يقول الكاتب الافرنسي ديسون : ان محمداً كان كثير الزوجات ولكنه لم يكن في ذلك اكثر من نبي الله سليمان ، الذي عددت التوراة خبر زوجاته وهن كثر

وكان هذا الرجل الذي اسس هذا الدين العظيم الخطورة لا يدعي المعجزات ، حتى انه كان ليذهب الى اقصى من ذلك فينكر بعض الحوادث التي ارتبطت بمعجزة او ما يتصل بذلك ويردها الى اصلها وحالها ، ونضرب على ذلك الامثال نروج فيها لما ذهبنا اليه وذهب اليه المسيو ديسون من عدم ادعاء النبي المعجزات ..

لما ولد للنبي ابراهيم دفعه لام بردة خولة بنت المنذر لترضعه ، واعطاها قطعة نخل فكانت ترضعه في بني مازن وترجع به الى المدينة ، فكان النبي ينطلق اليها فيدخل البيت ويأخذ الغلام الصغير

يقبله ويشمه ثم يرجع

ولما احتضر الفتى وجاء النبي وجده في حجر امه فاخذه عليه السلام في حجره وقال : يا ابراهيم انا لن نغني عنك من الله شيئاً .

ثم ذرفت عيناه عليه السلام وقال : انا بك يا ابراهيم لمحزونون ، تبكي العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب » .

ووقف محمد صلى الله عليه وسلم على قبر ابراهيم بعد ان رش قبره بماء ، واشار اليه بعلامة وقال :

« يابني ان القلب يحزن والعين تدمع ولا نقول ما يسخط الرب انا لله وانا اليه راجعون ، يابني ، قل الله ربي ، والاسلام ديني ، ورسول الله ابي »

وبكت الصحابة ومنهم عمر حتى ارتفع صوته بالبكاء فالتفت اليه النبي قائلاً : ما يبكيك يا عمر ؟

قال : يارسول الله هذا ولدك وما بلغ الحلم ، ولا جرى عليه القلم ويحتاج الى تلقين مثلك يلقنه التوحيد في مثل هذا الوقت فما حال عمر وقد بلغ الحلم وجرى عليه القلم وليس له ملقن مثلك !!.

ونزلت الآية : « يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في

الحياة الدنيا والآخرة » فطابت الانفس وسكنت القلوب وشكروا الله

وكسفت الشمس في ذلك اليوم ، فقال قائل من المسلمين لقد كسفت لموت ابراهيم

ولو كان محمد كاذباً في نبوته وغير صادق في رسالته لترك هذه الكلمة تسير سبيلها بين الناس تؤيد نبوته ، وتعزز مكانته، ولكنه ابى غير الحق ، وابى ان تصدر كلمة كهذه مليئة بالباطل ، مغمورة بالافك والبهتان فقال في حديث صحيح :

« ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده فلا ينكسفان لموت احد ولا لحياته »

***

ولما كتب النبي كتاباً لقيصر يدعوه فيه للاسلام ، ارسل قيصر رأس شرطته يبحث له في بيت المقدس عن بعض رجال العرب الذين يقصدونها للتجارة وغير التجارة يسألهم عن هذا النبي الجديد

وكان ابو سفيان قبل ان يؤمن بالاسلام في بيت المقدس فحدث قائلاً :

— اتانا رسول قيصر فانطلق بنا حتى قدمنا اليه فاذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله ، فقال لترجمانه : سلهم ايهم اقرب نسباً لهذا الرجل الذي يزعم انه نبي

فقال ابو سفيان : انا اقربهم نسباً اليه ... ذلك انه لم يكن في الركب يومئذ من بني عبد مناف غيره ، لان عبد مناف هو الاب الرابع لبني عبدمناف وكذلك لابي سفيان

فسألني قيصر ما قرابتك منه ؟

قلت : هو ابن عمي ...

فقال قيصر : ادن مني

ثم امر باصحابي فجعلوا خلف ظهري ، ثم قال لترجمانه :

— قل لاصحابه انما قدمت هذا امامكم لاسأله عن هذا الرجل الذي يدعي انه نبي ، وانما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذباً ان قاله

قال ابو سفيان : فوالله لولا الحياء يومئذ ان يردوا علي كذباً لكذبت ، ولكني استحيت فصدقت وانا كاره

ثم قال قيصر لترجمانه : قل له كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

قلت : هو منا ذو نسب

— وهل قال هذا القول احد قبله ؟

قلت : لا

— وهل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل ان يقول ما قال ؟

قلت : لا

— وهل كان من آبائه ملك ؟

قلت : لا

— وكيف عقله ورأيه؟

قلت لم نعب عليه عقلاً ولا رأياً قط

قال : فاشراف الناس يتبعونه ام ضعفاؤهم

قلت : بل ضعفاؤهم

ذلك ان اكثر من تبع النبي كان من الضعفاء واشراف القوم الذين تبعوه كابي بكر وعمر وغيرهما قليل

قال : هل يزيدون او ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون

قال : فهل يرتد احد منهم عن دينه

قلت : لا

قال : فهل يغدر اذا عاهد

قلت : لا ونحن الان منه في ذمة لا ندري ما هو فاعل فيها

قال : فهل قاتلتموه

قلت : نعم

قال : وكيف حربكم وحربه

قلت : دول وسجال ، ندال عليه مرة كما في أحد ، ويدال

علينا اخرى كما في بدر

قال : فما يأمركم به؟

قلت : يأمرنا ان نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد اباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدقة وبالوفاء بالعهد واداء الامانة

***

وبعد فهذا رأي ابي سفيان في الاسلام والنبي يوم ، كان في خصومته المعروفة مع النبي وصحبه ، ونترك للمؤلف المسيو ديسون ان يختم فصله هذا في النبي عليه السلام قائلاً :

وليس يزعم احد اليوم ان محمداً قد راح يزور ديناً ، وانه كاذب في دعواه افاك في دعوته

وقد اشار الى شيء من هذا الكاتب الانكليزي المعروف كارليل ، ونختم نحن بدورنا فصلنا هذا برأيين في الاسلام لكاتبين معاصرين من المسيحيين لا نستطيع ان نتهمهما بالعطف على الاسلام والمسلمين

قال المسيو برتلمي سانت هيليار :

«لقد كان محمد اذكى العرب في عهده واكثرهم تقوى وديناً وارحبهم صدراً وارفقهم باعدائه وخصوم دينه ، وما استقامت

امبراطوريته ... الا بسبب تفوقه على رجال عصره ، واما الدين الذي راح يدعو اليه فقد كان خيراً عظيماً على الشعوب التي اعتنقته وآمنت به »

وقال زويمر المبشر الانكليزي المشهور :

« ان عبقرية محمد هي السبب في نجاحه واستطارة شأنه ، يضاف الى هذا كله معرفته العظيمة بالديانات في عصره ، وقوته في الاقناع ، وحماسه الذي غمر اصحابه ، وامتد منه الى انصاره ، وقوته في اجتذاب القلوب اليه ، ومقدرته في الادارة والحرب ولباقته السياسية الفائقة »

* * *

وليس يعرف التاريخ صبياً تأثر بحياة الطفولة والصبا واحتفظ بحوادثه وذكرياته ما اقام في هذه الدنيا ووفى للذين بروا به واحسنوا اليه كمحمد بن عبد الله ، لم يكد يقدر على البر واسداء المعروف واظهار شكره للنعمة واعترافه بالجميل حتى ضرب للناس في ذلك اروع الامثال وابلغها تأثيراً في القلوب

ارضعته امة لابي لهب يقال لها (ثويبة) اياماً قبل ان تأخذه حليمة ، فلما علم ذلك من امرها حفظ لها هذه النعمة ، وعرف لها هذا الجميل ، فلم يكد يقدر على شكرها والبر بها حتى جهد في ذلك ، واذا به يحمل زوجه خديجة على ان تسعى عند ابي لهب في ان

تشتري منه هذه الامة لتعتقها ، فيأبى ابو لهب فيتصل معروف الرضيع بامه هذه ما اقام بمكة ، حتى اذا هاجر الى المدينة لم ينس امه ولم يهملها ، وانما ارسل اليها الصلات والكسوة من حين الى حين حتى اذا عاد من غزوة خيبر وقيل له : ان (ثويبة) قد ماتت سأل عن قرابتها ليصلهم بما كان يصلها به من معروف فانبئ بانها لم تترك احداً

وحياة اهل البادية مليئة بالضنك مغمورة بالشقاء ، فانظر الى حليمة تهبط الى مكة تستعين بابنها على اثقال الحياة ، فيكلم لها خديجة فتمنحها بعيراً ، واربعين شاة ، وانظر اليها تستأذن عليه مرة اخرى فاذا ادخلت عليه ورآها قال : امي!! امي!!

ثم بسط رداءه فاجلسها عليه ، ثم ادخل يده من دون ثيابها فمس صدرها مساً ثم قضى حاجتها

ثم انظر اليه عند ما عظم وارتفع شأنه ودانت له العرب كلها وقد نصره الله يوم حنين على هوازن ، فهزم الجند واحتوى المال وسبى الذرية والنساء ، وقسم الغنائم بين المسلمين ، وانه (بالجعرانة) صباح يوم — وهو موضع بين مكة والطائف — واذا وفد من هوازن يقبل عليه مسلماً منبئاً باسلام من وراءه من الناس ، وفي هذا الوفد عمه من الرضاعة ، واذا عمه هذا يتحدث اليه فيقول :

— يارسول الله ، ان في هذه الحظائر من كان يكفلك من عماتك وخالاتك وحواضنك ، وقد حضناك في حجورنا وارضعناك بثدينا ، ولقد رأيتك مرضعاً فما رأيت مرضعاً خيراً منك، ورأيتك فطيماً ، فما رأيت فطيماً خيراً منك ، ثم رأيتك شاباً فما رأيت شاباً خيراً منك ، وقد تكاملت فيك خلال الخير ونحن مع ذلك من اصلك وعشيرتك فامنن علينا من الله عليك

فيجيبه النبي : لقد استأنيت بكم حتى ظننت انكم لاتقدمون وقد قسمت السبي وجرت فيه السهام ، فما كان منه لي ولبني عبد المطلب فهو لكم واسأل لكم الناس ، فاذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله الى المسلمين، وبالمسلمين الى رسول الله فاني ساقول لكم: ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم وساطلب لكم الى الناس

فلما صلى الظهر قام الوفد فاتم ما امر به ، ووفى النبي لهم بوعده وشفع لهم عند الناس ، فردت عليهم نساؤهم وابناؤهم لم يأب ذلك الا نفر من الاعراب اشترى منهم ما كان في ايديهم من السبي ورده على اهله .

هذا وفاء بليغ الاثر في النفوس، وابلغ منه هذه الطريقة الطاهرة البريئة في استخلاص السبي من الذين ملكوه ، فيها وفاء ، وفيها رد للحرية على آلاف من الناس ، وفيها اقرار للامن والسلم في قبيلة

ضخمة قوية من العرب ، وفيها تخليص القلوب من الضغينة والموجدة والحقد ، وتهيئتها لقبول الاسلام والنصح للمسلمين في صدق واخلاص

ثم ان للرسول وفاء آخر يملأ القلوب رحمة ويمزقها لوعة واسى لانه وفاء المحب الصادق في الحب العاجز عن النفع الذي لا يملك لمن يحب خيراً ، ذلك ان لله قدراً مهما تعظم القلوب فلن تغيره وتبدله لقد كان محمد اشد الناس براً بامه ووفاء لعمه ، مر بقبر امه عام الحديبية فاستأذن ربه في ان يزور القبر ، فاذن له فزاره واصلحه ومكث عنده حيناً ، ثم استأذن ربه في ان يستغفر لامه فابى عليه ، فانصرف عن القبر باكياً كئيباً ، وبكى المسلمون لبكائه ، واكتأب المسلمون لاكتئابه

ودخل مكة عام الفتح ظافراً منتصراً ، وبينا هو في بعض مواضعها رأى اصل قبر فعطف عليه واقام عنده ، واستأذن في الاستغفار لصاحب القبر فلم يؤذن له ، فانصرف محزوناً كئيباً وبكى فبكى المسلمون ، وما رأى الناس يوماً اكثر باكياً من ذلك اليوم واختلط امر هذا القبر على الرواة فذهب قوم الى انه قبر جده ، وقال آخرون انه قبر عمه ابي طالب ، وعرض محمد الاسلام على عمه ، والح عليه ، وكاد الرجل يقبل لولا حمية الجاهلية ، فلما مات قال محمد: لاستغفرن لك .. فلامه القرآن في ذلك لوماً عنيفاً

تبارك الله ، رجل يخرج الله به امة كاملة من الظلمات الى النور ويفتح له ابواب الخير على مصاريعها الى آخر الدهر ، ثم يأبى الله عليه ان يستغفر لامه وعمه، وان ينقذ اهله الاقربين الذين أدوه الى الناس وحموه حتى ادى الامانة ، وبلغ الرسالة

ولكن ذلك هو العدل الالهي محتوم لا يقبل اخذاً ولا رداً ، ولا تجوز عليه المصانعة ولا المحاباة « وما كان للنبي والذين آمنوا ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولي قربى من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم » والله سبحانه وتعالى «لايغفر ان يشرك به ،ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء »



— ٥ —

وثبة الاسلام

لما انتقل النبي الى الرفيق الاعلى كان الاسلام يغمر الجزيرة العربية كلها على وجه التقريب ، فلا يمضي قرن واحد حتى يقتحم هذا الدين العالم من اقصاه الى اقصاه ويمتد من اسبانيا الى الهند ، وهذا حدث يصح ان يقال انه الوحيد من نوعه في تاريخ الحضارة الحاضرة

ولقد راح بعضهم يفسرون سرعة انتشار الاسلام هذه ، بماالقي في روعهم من ان السيف سببه ، وان هذه الجماعات المختلفة العدد المضطربة الانظمة والتقاليد والعادات قد راحت تتقبله ديناً بقوة السيف والحرب

ولئن كان هذا حقاً فانه ليس بمقلل من خطورة هذا الحدث الغريب ، ولا هو بمضعف من قوة الاسلام وسرعة انتشاره ، ولكن المعلوم ان ما تتقبله جماعة من الجماعات بالسيف ليس يدوم طويلاً واذا نظرنا الى الجماعات التي اعتنقت الاسلام ديناً ، وصرفنا النظر عن اسبانيا التي محق فيها الاسلام بقوة السيف والعسف والاضطهاد

نرى أن الامم التي اعتنقت الاسلام ايام الفتح الاسلامي، ومنذ الف ومابتي سنة مثلاً لا تزال تدين به وتدافع عنه ولا ترضى به بديلاً .

ثم ان اجبار الامم والجماعات على اعتناق دين من الاديان بالسيف يستوجب عدداً عظيماً من الفاتحين يقيم بعضهم في كل مدينة وقرية يفتحها الجيش محافظة على الامن واقراراً للدين الجديد، وهذا امر لا يؤيده التاريخ القديم ، كما واننا على مثل اليقين من ان العرب لم يكن لديهم في فتوحاتهم مثل هذا العدد العديد من الجند يتولى حراسة القرى والامصار المفتوحة، ويقوم فيها على نشر دينه الجديد بالقوة والعنف .

واذن فيجب علينا ان نلتمس سبباً غير ما تقدم نفسر به هذا الزحف العجيب وهذه الوثبة العربية الغريبة المدهشة

فاذا نظرنا الى التاريخ المعاصر نرى ان الاسلام ما يزال يتقدم حثيثاً في المواطن القريبة منه ، والامصار التي تتصل معه ، واعجب من ذلك انه دين يقاوم كل ما يعرض عليه من اديان جديـدة ، ويرفض كل نظم تقدم له ولا تسير وفاقاً لشرائع دينه وتقاليد نبيه ولديه قوة في التبسط غريبة ليست لدى دين غـيره من الاديان المعروفة ، ومن المعروف ان احداً من المسلمين لا يتقبل المسيحيـة ولكن كثيراً من المسيحيين يتقبلون الاسلام حتى اليوم وهذه ظاهرة عجيبة تفسر لك ما في الاسلام من خوارق مدهشة

ولا بد ان يكون السبب الاساسي في تبسطه السريع في القرن السابع هو نفس السبب في تبسطه اليوم وتقدمه الحاضر ، ولعل هذا يعود الى سهولته اكثر من كل شيء آخر ، فهل لا يختلف مع العقل السليم والامور المقررة ، والمسلم يستطيع بكلمات بسيطة قليلة بسط عقائد دينه ، فيتفهمها الوثني حالاً وبدقائق قليلة ، وهو مع ذلك لا يأتيك بشيء جديد يختلف عن الاديان الحاضرة ، ولكنه يأتيك بذلك في صورة معقولة بسيطة لا تتحمل تأويلاً ولا تفسيراً ، هذا الى احترامه لتقاليد الآخرين وعوائد الغير لا يتعرض لها ولا يحاربها ، ثم انه اليوم يتقدم دون ما سلاح ولا قوة ولا بطش ، وهذا يزيد في روعته وتأثيره ، فهو والحالة هذه دين يوافق الذهنية الانسانية ، وليس صحيحاً ما يقال من انه يغوي الناس بعقائده المتفككة التي لا تضطرب في شدة ولا قوة ، والواقع غير ذلك لان الاسلام شديد في بعض عقائده واموره ، فهناك الصيام ، وتحريم الاشربة المسكرة ، ولحم الخنزير وغير ذلك مما هو شديد على النفوس التي تعودت عليها

***

وليس من شك في ان وثبة العرب المسلمين من الجزيرة العربية واقتحامهم العالم المعمور في عهدهم ، واقدامهم على هذه الفتوحات البعيدة المدى امر يثير الدهشة ويبعث على الاكبار ، خصوصاً اذا

نظرنا الى قلة عدد العرب المسلمين في ذلك العهد ، ونقص الاهبة عندهم واقتحامهم لدولتين من دول العالم — الفرس والروم — وهما كما يعلم القارىء من اعظم دول العالم في ذلك العهد قوة وعدداً وعدداً وحضارة وثقافة

ولعلنا لا نخطىء وجه الصواب اذا رحنا نفسر هذه الوثبة وفاقاً للتاريخ ووفاقاً للذهنية العربية الاسلامية في ذلك العهد ، واذا نظرنا الى هذه الذهنية وجدناها تضطرب في توحيد هذا الاسلام لهذه القبائل العربية المشتتة المفككة الاوصال ، المتهدمة العقلية والعقيدة ، وجمعها وتنظيمها في نظم دينية واجتماعية واخلاقية قوية جداً

ولقد كان الدين الجديد شديد الاثر في التشريع الذي خلق من القبائل العربية مجتمعاً منتظماً متماسكاً تستند في روحها الى اقوى مبادىء الطبيعة البشرية ومشاعرها . واذا ذكرنا ان هذا التشريع الذي انشأه محمد منذ ثلاثمائة سنة والف سنة ما يزال حتى يومنا هذا تشريعاً تسير الدول الاسلامية وفاقاً لهديه ، وقفنا على صورة هذا التشريع واثره العجيب في نشأة الحكومة الاسلامية الاولى والاسباب التي مكنت لهذه الحكومة بالتبسط والاستبحار في العمران والامتداد بفتوحاتها الى اقصى الارض

لقد اشار المؤرخ فنلي الى هذه الظاهرة الخطيرة حين قال :

« قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول اتباعه واعمالهم، ووضعت عبقريته اساس نظام ديني سياسي ما يزال يحكم الملايين من البشر من اجناس مختلفة وصفات متباينة ، وان نجاح محمد كمتشرع بين اقدم الامم الاسيوية، وثبات نظمه مدى اجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي ، دليل على ان هذا الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من اكبر العبقريات »

واذا اضفنا الى هذا مبدأ الوحدة في العقيدة الالهية وفي القومية وفي الادارة الدينية والمدنية والسياسية والقضائية والعسكرية واندماج كل هذه جميعها في نظام رئيسي واحد ، وقعنا ايضاً على عامل قوي كان السبب في التفاف القبائل المختلفة حول الدين الجديد واجماعها على بث دعوته ، ودفع سلطانه بحماسة وعزم كان لهما الاثر الاعظم في سير الفتوحات العربية وبلوغها هذا المدى البعيد السحيق .

واذا ذكرنا ايضاً اضطراب السياسة الدينية والسياسية والمدنية والاجتماعية في مملكتي الاكاسرة والرومان ، واتحاد كل هذه عند العرب الفاتحين ادركنا السبب الثاني في نجاح الفتوحات العربية واستطاعتها اقتحام الدولتين ، وانهيارهما امامها

ثم ان العرب الفاتحين كانوا يقدمون في فتوحاتهم امثلة سامية

من الاعتدال وضبط النفس واجتناب الكبائر والاساليب الوحشية التي كانت تسود صحف الحرب في تلك العصور ، والتي كان الرومان والفرس في فتوحاتهم يستعملونها ويروجون لها

خذ مثلاً وصية ابي بكر الخليفة الاول لقواده لما بسط يده في الفتح وبعثهم لغزو البلاد الفارسية والرومية فان هذه الوصية تعد من اروع الوصايا التاريخية، وليس لها مثيل في تاريخ العالم

ولقد وصى ابو بكر جيش اسامة حين بعثه لمحاربة غير المسلمين فقال :

« لا تخونوا ،ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ، ولا امرأة ، ولا تحرقوا نخلاً ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً ، وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا انفسهم له »

وجيش هذه سياسته ، وهذه وصية قائده الاكبر له من الحق ان ينتصر ومن الحق ان يجد له من ابناء البلاد المفتوحة اعواناً وانصاراً يساعدونه على عدوه الذي كان كثير الفظائع ، بعيداً عن العدل مضطرب السياسة ، مختلف الاحزاب

***

ولا بد من القول ان لسياسة الخلفاء الراشدين اللبقة شأناً في هذه الفتوحات العظيمة ، واذا اضفنا الى ذلك ان الاسلام لم

يكن في فتوحاته هذه وانتصاراته العظيمة يجبر الامم المغلوبة على اعتناق دينه بل يتركهم احراراً يمارسون عقائدهم وطقوسهم وفاقاً لتقاليدهم وعاداتهم ، وان هذا كان شيئاً جديداً لم تكن تحلم بمثله هذه الامم التى كانت تلاقي الامرين من العنف والاضطهاد ، كما وان الضرائب التي فرضها الحاكمون المسلمون كانت شيئاً قليلاً بالنسبة للضرائب التي كانت تفرض عليهم قبلاً من حكامهم السابقين ، ادركنا الاثر الذي احدثه الاسلام في قلوب سكان البلاد المغلوبة ، مما حمل سكان هذه البلاد على تقبل الاسلام عن رغبة لا عن رهبة

وقد قال المؤرخ الاستاذ جون سميث في هذا الصدد ما يأتي :

« ان الاقبال العام على اعتناق دين جديد على اثر فتح اجنبي امر لا يكاد يعرفه العصر القديم ، ولكن الاسلام يقف وحيداً في هذا الفوز »

وقال المؤرخ دوزي بهذا المعنى ايضاً :

« ان هذه الظاهرة تبدو لاول وهلة لغزاً غريباً لا سيما متى علمنا ان هذ الدين الجديد لم يفرض فرضاً على احد » .

وبينما كانت الدولة الرومانية وآسيا الوثنية ، وافريقيا المضطربة الاغراض والمذاهب في ما يشبه انعدام العدالة المذهبية والحجر على الروحيات والآراء والمعتقدات ، كان الاسلام يتقدم الى الشعوب

المفتوحة بميزتين او نعمتين لم تكن تعرفهما هذه الامم والجماعات في عهد حكوماتها، الاولى نعمة الحرية الدينية ، والثانية نعمة الاعتدال في فرض الضرائب وحصرها في حدود معينة ، وهما باعتراف جمهرة المؤرخين من اهم العوامل التي مهدت للعرب سبيلهم الى تأييد الشعوب المغلوبة ، بل الى معاونتها الفعلية في محاربة الرومان وغير الرومان

وقد استقام للاسلام الظفر في سورية ومصر باسرع مما استقام له ذلك في اي بلد آخر ،وسببه ان النصرانية كانت قد سادت مصر وسورية بقوة النار والسيف ، ولم تلق اليهما في اثواب واضحة محددة مقررة ، ولا كانت فيهما راسخة الجذور ، بارزة العقائد والتعاليم . وكان العسف والارهاق والمطاردة الدينية وتعدد الاديان والمذاهب ، وتضارب العقائد والنحل قد ادت بهما الى اسوأ اطوار الانحلال السياسي والفوضى الاجتماعية ، هذا الى انه كان ثمة شبه كبير بين كثير من عقائد الاسلام والنصرانية وكان الظفر الذي اقترن بتقدم الاسلام مرجحاً قوياً له على غيره وسواه ،ودعوة عميقة الاثر في سنبيل اكباره،كما ان ضروب العدالة والرفق التي اقترنت بسياسة الغزاة المسلمين الاوائل كانت حجة ناهضة على جور الحكومات في هاتيك العصور،وعلى ان النظم الدينية المتبعة لم تكن ممثلاً حقيقياً لمثل العدالة والاخاء ، أفلم تكن هذه كلها شواهد

قاطعة عميقة الاثر على ان الدين الجديد جدير بالاتباع وانه وهو الظافر الدين الحق . وكان الاعتقاد في حدوث المعجزات سلاحاً مسموماً ارتد الى صدر القائلين به من رجال الكنيسة . فانه لم تحدث معجزة ترد عادية الاسلام على النصرانية ولم تنقض الصواعق على اولئك الغزاة الاشداء الذين اجتاحوا سواد العالم القديم في زهاء جيل من الزمن

***

يقول ديسون : ونضرب مثلاً على سرعة هذه الفتوحات العربية فتح العرب لاسبانيا . لقد مشى اليها طارق على رأس عشرة آلاف من جنده فكسر الجيش (الجوثي) الذي اراد محاربته ثم امده موسى بن نصير القائد العربي بعشرين الف جندي مشى هو على رأسهم فتمكن العرب بهذا الجيش القليل العدد البعيد عن مواطنه وامصاره ومراكزه من اقتحام اسبانيا من اقصاها الى اقصاها ودفع الجوث الى الجبال يعتصمون بها ويتخذونها مواطن جديدة لهم

وراح المسلمون بعد هذا الفتح يحترمون العقائد المذهبية عند الاسبان فلا يعرضون لها بنكر ولا انكار ، وتركوا للمسيحيين قضاتهم ، وعقائدهم وقوانينهم وكنائسهم ، واكتفوا منهم بجزية زهيدة يدفعها الى الخزانة العامة كل فرد منهم . ولقد تمكن العرب من فتح اسبانيا في اقل من سنتين ولم يتمكن المسيحيون من

استرجاعها الا بعد معارك دامت ثمانية قرون

واخذ العرب يتقدمون بعد ذلك الى فرنسا ، فسقطت (ناربيون) في ايديهم ، وكذلك كان مصير (كار كاسون) ووصلت خيول الجيش العربي الى (ليون واوتون) ولما اراد العرب التقدم نحو (تور) سنة ٧٣٢ ردهم شارل مارتل في معركة (بواتييه) فلما اراد مطاردة الجيش العربي لم يوفق لان سكان البلاد الافرنسية راحوا يحاربون مع المسلمين العرب حين رأوا ما يقوم به جنود شارل مارتل من النهب والسلب ، وما يزال اثر الغزو العربي باقياً في بعض البلاد الافرنسية حتى يومنا هذا

فاذا قام الخلفاء العباسيون كان الاسلام قد وصل الى ذروته في التضخم السياسي والاستبحار في العمران ، وانتشار الفتوحات ، لقد كانت الامبراطورية العربية تمتد من الهند الى فرنسا ومن البحر المتوسط الى الصحراء ، وكان هارون الرشيد يتبادل الرسائل والهدايا مع شارلمان امبراطور الافرنسيين ويأخذ الجزية من امبراطور القسطنطينية

ولكن الروح التي سادت هذه الامبراطورية العظيمة ، والحماسة التي غذتها ، والتضحية التي خلقتها ، كان قد اخذ الضعف يدب اليها جميعها ، فانصرف المسلمون عندئذ الى الخلافات الدينية والبحوث المذهبية ، وهذه وان كانت تدل على تقدم فكري وفلسفي عميق ،

الا انها كانت مؤذنة بانحطاط المملكة الاسلامية ، وقد اتصل هذا الاختلاف في النظريات الدينية الى الاختلاف في الشؤون السياسية ومصاير الحكم ، فاخذت الامبراطورية الاسلامية تنهار رويداً رويداً ، ولكن الاسلام ظل قائما كقوة عالمية عظيمة



— ٦ —

استبحار الحضارة والعمران

ليس هنا مجال التبسط في حضارة الامبراطورية العربية وعمرانها ، وليس الى هذا سبيل في هذا الفصل الذي نريده كثير القصد بعيداً عن الاغراض في بحث اسباب هذه الحضارة والوانها ونواحيها وهي كثيرة الآماد بعيدة المدى ، وانه لشرف عظيم للاسلام في اول نشأته وبدأ ظهوره ، وفي ايام النبي عامة والخلفاء من بعده خاصة ان يتوفر على تغذية العبقريات من اتباعه لا فرق في ذلك عنده بين عربي وعجمي ، ولا بين شريف ومولى ، فكان من اثر ذلك ظهور هذه الشخصيات الفذة في التاريخ الاسلامي من اعاجم وموالي وتمكنها من القيام بقسطها في انشاء هذه الحضارة وتقويتها وتغذيتها ومساعدتها على التبسط والاستبحار في الامبراطورية العربية من اقصاها الى اقصاها .

وانه لغريب حقاً توفر هذه الظاهرة على الظهور في بدء الاسلام ولعل مرد ذلك الى هذه الاخوية الاسلامية التي راح يدعو اليها محمد ، ويعمل على تعزيزها وتغذيتها فقد عودتنا امثال هذه الحركات

الدينية وغير الدينية في بدء ظهورها ان تكون ضيقة شديدة في ما يتصل بالغرباء عنها في النسب واللغة ، واما الاسلام فقد انكر ذلك كل الانكار ، وايد الاخوة الاسلامية كل التأييد ، وقال لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى والعمل الصالح ، واذا كان هناك من تعصب شاهدناه في عهد الامويين وغير الامويين ، فقد كان هذا التعصب ضيقاً ، وكانت عصبيته ترجع الى العصبية الجاهلية العربية التي كانت لا تزال قوية الاثر ، حتى لقد كانت هذه العصبية تتصل بالعرب بعضهم مع بعض ، واما الاسلام فلاشأن له في هذه العصبية ، ولاهو ارادها ، ولا دعا اليها

ولقد كانت الحكومة في عهد الخلفاء الراشدين فالامويين والعباسيين حكومة موفقة حقاً ، نعني بذلك انها حكومة كانت تعمل على الاحسان في ما يتصل بالمصالح الشعبية ، من اقامة العدل وتغذية العقل ، واحقاق الحق ، وليس هناك سبيل الى انتقاد هذه الحكومة وانتقاصها فقد كانت تنعم بنظم تضطرب في ارقي المثل العليا التي تحاولها اليوم حكومات العالم المتمدن

وقد توفرت هذه الحكومات على فتح الطرق ، وتشجيع العمارة ، وانشاء البرد ، وتقسيم الضرائب تقسيماً عادلاً لا سبيل معه الى الشكوى ، وكان يتوالى على حكم الامصار المختلفة في الامبراطورية قواد وحكام احسنوا في اداراتهم المختلفة ، ووفقوا

كل التوفيق في ما يتصل بهذه الامصار من احقاق حق ، ورفع مظلمة ، ودفع مضرة ، ورفع المستوى الادبي والعلمي والمساعدة في نشر المعارف وازدهار الحضارة الادبية والعلمية

فليس عجباً والحالة هذه ، والامبراطورية العربية المسلمة تضطرب في ديموقراطية لا تعرف نظام الاقطاع ، ولا تأثير للكهنة فيها ، ولا شأن للارستوقراطية بها، ولا امل في توفر المناصب الوراثية عندها ، ان نرى عبداً يصبح وزيراً ، ومولى ينصب حاكماً ، وعائلة لا تتصل والعرب بنسب وسبب تتسلم زمام الاحكام ، وتسير الحكم في هذه الامبراطورية العظيمة وفاقاً لاهوائها واغراضها

وهي بيئة مدهشة حقاً ، هذه التي تسمح للفرد النشيط الذكي بان يصبح سيداً حاكماً ، وان يبلغ بجده ونشاطه ارقى المناصب وارفع المراتب

ويضاف الى ذلك رغبة العرب في طلب المعرفة التي امر بها النبي وفرضها على المسلمين فرضاً ، واتصال هؤلاء الاقوام بالحضارات السابقة ، والمساعدة التي كان يقدمها مفكرو هؤلاء الاقوام والجماعات في مختلف فنون المعرفة ، بتأثير العطف العربي عليهم ، وتبسط العدل في امصارهم وربوعهم

***

وباتصال العرب بالامم والجماعات التي لا تتصل مع العرب

بسبب موصول خصوصاً الفرس منهم اخذت الثورة التي كانت تلم بالعربي وتستولي على كل مناحيه ومنازعه تهدأ . وتلين ، ونريد بالثورة هذه الشدة في معاملاته ، وهذه النار التي تجعله غاضباً لاتفه الاسباب ، وابسط الامور ، وقد يذهب بعضهم الى الايمان بتأثير المرأة العربية في هذه الناحية ، بعد ان اخذ يظهر منهن الشاعرات والاديبات ، ولا يجب ان نتناسى في هذا الباب ما كانت تتمتع به المرأة في عهد الامبراطورية العربية من حقوق ومزايا لم تكن تتمتع بها زميلاتها الاوروبيات اللواتي كن لا يزلن في عهد الجاهلية وعهد البربرية الممضة ، فان الامبراطور شارلمان لم ير كبير امر في ان يضرب شقيقته في وجهها اثر جدال بينها وبينه فيكسر لها اربعاً من ثناياها

وليس يسع المرء الا الاشارة في هذا الفصل ايضاً الى هذه الاخلاق العربية الرفيعة من حفظ الجار ، والمحافظة على العهد واكرام الضيف ، والاغراق في البذل والعطاء . وهي صفات كان عزيزاً ان تجد مثلها في الامم والشعوب التي كانت تساوق العرب الحياة في ماضيات الايام

واما تقدم العرب في الشعر والانشاء والتاريخ والادب وغير ذلك من الوان المعارف فلسنا نجد له مكاناً في هذا الفصل لغزارة هذا البحث و كثرة من نبغ من الفحول والكتاب والشعراء

واما في الفلسفة فقد ترجم العرب كتب الاغريقيين جميعهم ، وكانت الترجمة صادقة صحيحة بحيث انها كانت اساساً لدراسة الفلسفة في عهد النهضة ، وفضل العرب في هذا الباب عظيم الخطر ، فهم الذين حموا الفلسفة اليونانية من الانقراض والتضعضع بترجمتها الى لغتهم وقد انتقلت ترجماتهم هذه الى القسطنطينية ومنها الى ايطاليا حيث ترجمت الى اللغة اللاتينية وانتشرت منها في العالم الاوربي .

ولا بد من الاشارة الى ان الفلاسفة العرب لم يتقبلوا الفلسفة اليونانية كامر واقع ، وكنظريات مقررة ثابتة لا تحتمل جدلاً ولا بحثاً ، ولكنهم راحوا يتناولونها بالتعديل والتحوير فخرجت فلسفتهم وفيها جدة وعمق افاضت على الفلسفة اليونانية جلالاً جديداً وانتاجاً رائعاً ، وقد كان للفلسفة العربية من الشأن والخطورة في القرون المتوسطة حتى انها كانت الشعلة الوحيدة التي راحت تضيء نور المعرفة مدى اجيال عديدة

***

لقد اشرت في هذا الفصل الى اني لست بمتوسع فيه التوسع المطلوب ، ولا بمتبسط فيه التبسط المنتظر ، اعتقاداً مني ان القارىء واجد ما يطلبه من مثل هذا البحث في مطولات كتب الادب والتاريخ ، ولذلك فاني مختصر ما قدمت في هذا الباب

خاتم ما تقدم بالقول ان العرب الذين انشأوا هذه الحضارة الرفيعة المقام الجميلة الآثار قد ادوا للعالم في عهدهم ، ولاوربا من بعدهم خدمة عظيمة لان حضارتهم هذه ظلت تنير الطرق والمفاوز لكل الامم التي عاشت معهم ، او تبسط عمرانها بعد انهيار حضارتهم

وليس يصح ان اختم هذا الفصل دون ما كلمة في الحروب الصليبيـة ، واني تارك للمسيو ديسون نفسه ان يتناولها في كتابه بصراحته التي يشكر عليها قال :

« من الحق ان نتناول بالبحث هذا الحدث التاريخي الخطير المصابر وهو الحروب الصليبية التي اقامت الاسلام والمسيحية وجهاً لوجه مدى سنوات عديدة ، واثارت من الخصومة والبغضاء بينهما ما يزال اثره قوياً ظاهراً

لقد توسلت الكنيسة بكثير من الطرق الى تخفيف هذه الشعلة البربرية التي كانت لا تزال تلم في ابناء الغرب وقد وفقت في غرضها هذا الى حد محدود ، فلما كانت الحروب الصليبية مشي مع الصليبيين اقوام كان همهم السلب والنهب ، وغايتهم السرقة والقتل وزاد في ذلك ما لاقوه في طريقهم الى بيت المقدس من عناء ومشقات ومن تعب وضنك

والواقع ان الصليبيين انفسهم قد ظهروا للمسلمين وغير

المسلمين ايضاً كبرابرة مخيفين حقاً (١) وقد اظهروا في آسيا ضروباً من العنف والفظائع لم تكن تعرفها هذه البلاد التي كان قد مر عليها اربعة قرون وهي تعيش في نظام من العدل العربي لم تكن قد رأته قبلاً (٢)

وقد اقتحم الصليبيون القدس في ١٥ تموز ١٠٩٩ وقتلوا في اليوم نفسه عشرة آلاف من المسلمين التجأوا الى جامع عمر ظناً منهم انه مانعهم عن اعدائهم الفاتحين(٣) ثم لم يكفهم هذا ولا خفف من ثورتهم الدموية شيئاً فراحوا في الاسبوع نفسه يقتلون من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم يكونوا من الكاثوليك ما يقرب من ٦٠ الف نسمة(٤)

---

(١) « انهم لا يستحقون لقب الانسان » من كلمة للشاعر سعدي

(٢) وصف (روبرت ل موان) مذبحة سكان (مارات) المسلمين قائلا « لقد بدأت مذبحة الترك في ١٣ كانون الاول ولم يكف ذلك اليوم لقتل جميع الاسرى فاجهزنا على البقية في اليوم التالي »

(٣) « لقد استحر القتل في هيكل سليمان ، و كثرت فيه الجثث حتى ان الجند الذين قاموا بهذه المذبحة لم يعد بامكانهم ان يطيقوا الرائحة التي كانت تتصاعد من جثث القتلى » الاب ريموند داجيل

(٤) « جنون غريب » هذا ما وصف به (برنارد) الصليبيين عند دخولهم الى القدس فاتحين

وكان خلفاء الصليبيين الاول مثل اجـداد هم قسوة وشدة وعسفاً وقتلاً ، حتى لقدراح يصفهم بعض رجالات المسيحية وصفاً شديداً وينكر انهم من المسيحية في شيء ابداً ، وحتى ان المسلمين انفسهم تناسوا اختلافاتهم وقاموا جماعة واحـدة لصدهم وقتالهم ، فلم يمض وقت طويل حتى اخرجوهم من القدس والبلاد المقدسة

وقد يذهب البعض الى القول بمـا كان للحروب الصليبية من اثر في تغذية الحضارة الاوربية ، بسبب اتصال هؤلاء بالمسلمين المتحضرين ، وهذا قول مليء بالخطأ لان العلاقات بين الأسلام والمسيحية كانت حسنة جداً قبلاً ، واما بعد الحرب الصليبية فقد اخذت شكلاً دموياً يؤسف له ، وما تزال آثاره بعيدة الاثر شديدة التأثير

***

وبانتهاء الحروب الصليبية اخذ الاسلام يتراجع عن حدوده الاولى ، واخذ الاختلاف يدب بين صفوفه ، واشتدت البدع فيه ، وكثر الايمان بالصلحاء وغير الصلحاء فقامت لهم المساجد والبيع يقصدها المسلمون للزيارة وطلب الدعاء ، مما كان من شأنه ان يصرف الاسلام عن سبيله الاول ووحدته السالفـة ، ووحدانيته الاولى التي دعا لها محمد وامر بها

ولكن الروح الاسلامية الفتية النقية الطاهرة كانت لاتزال تغمر القلوب التى اخذت تنادى وتعمل لاعادتها سيرتها الاولى ، والامل عظيم بان ترجع هذه الشعلة الاسلامية الى سابق امجادها وماضيات ايامها



- ٧ -

النهضة الاسلامية الجديدة

بدأت النهضة الاسلامية الجديدة بعبد الوهاب زعيم الوهابية فقد راح هذا يحاول اعادة الاسلام الى تراثه السالف وهديه الماضي وروحه الفطرية التي مكنت له في الفوز ، فغلب العالم في عشرات من الاعوام

وقد وجد عبد الوهاب في محمد ابن السعود عضداً قوياً وعاملاً اسلامياً شريفاً ، تمكن في سنوات قليلة من اعادة الوحدة العربية في قلب الجزيرة العربية ، وراح يعيد تراث السلف الصالح ويقتفي اثر الخلفاء الراشدين في اقامة العدل ، وبسط الامن ، وقد حملت هذه الفكرة الاصلاحية بذورها في الاسلام والامم الاسلامية ، واحس مفكرو الاسلام بالضرورة الملحة الى لم شعثهم ، وتوثيق ما تفرق من شملهم ، والعودة الى القرآن في جميع ما يريدونه من احكام ، وما يتطلبونه من معاملات ، وهذه الفكرة في الرجوع الى عقائد الاسلام الاول فكرة خطيرة اخذت تلاقي اليوم كثيراً من الانصار والاعوان ، لانها باعتقاد الجميع السبيل الاوحد الى

والوهابية في الواقع، ليست الا عودة الاسلام الى نشأته الاولى، والايمان بالقرآن والحديث، دون ما تفسير ولا زيادة ولا نقصان، هذا في ما يختص بالمعاملات الدينية طبعاً واما ما يتصل منها بالمعاملات الاجتماعية وغيرها فان محمداً نفسه قد اقر بضرورة التعديل في هذه حين قال اني لست غير رجل منكم فان امرتكم بشيء يتعلق بالدين فاتبعوه، وان امرتكم بشيء يتعلق بالمعاملات الدنيوية فاني لست غير رجل منكم

وقال في مكان آخر: انكم في زمن ان تركتم عشر ما آمركم به هلكتم، وسيأتي زمن اذا اتبع الواحد منكم عشر ما يؤمر به نجا

والواقع ان الاسلام اليوم يقف موقف المسيحية في عهد النهضة، واما رينان فيذهب الى انه يستحيل على الاسلام ان يتقدم ويساير الحضارة الحاضرة، وهي فكرة خاطئة لان المسيحية في بدء النهضة كانت كالاسلام اليوم شديدة ضيقة بحيث لم تكن تسمح لحرية الفكر بالذيوع والانتشار، فلم يمنعها هذا من التطور والتكييف وفاقاً للحضارة ووفاقاً للعلم الحديث، وما نظن الاسلام الا موفقاً في هذا السبيل ناجحاً في التكييف مع الحضارة الحديثة، خصوصاً وانه من اكثر الاديان تأييداً للعلم وتقديراً لحرية الرأي

والفكر الجديد

ألم يأمر النبي اتباعه بطلب العلم من المهد الى اللحد ؟

ألم يقل لهم ان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة؟

ألم يأمرهم بطلب العلم حتى في الصين؟

والواقع ان الاسلام اقرب الى التقدم من سواه من الاديان لانه لا كهنوت فيه ، وليس هناك فيه عقائد مختومة مقررة لا يستطيع تأويلها وعلى الخروج عنها

وليس من ينكر تأثير الحضارة الاوربية الحاضرة على الاسلام وقد سبق للاسلام في ماضيات الايام ان راحت حضارته تقتحم البربرية الاوربية ، وها هي هذه البربرية اليوم وبعد ان اخذت حظها من الحضارة والعمران تدفع الدين الذي عليها للاسلام فتمده وتغمره بارفع ما لديها من معارف وعلوم ومن اختراعات وفكر جديد

والاسلام يتقبل كل هذه رويداً رويداً ، والمسلمون في اقطار العالم يعملون لتفهم هذه الحضارة الغربية الجديدة والاستفادة منها ، ورجالات الاسلام الذين يقودون جماعاتهم الى تفهم هذه الحضارة يجدون اوربا لهم بالمرصاد ، فكان من اثر ذلك ثورتهم على الحكم الغربي الذي يقف حائلاً بين الاسلام وما يحاوله من تفهم الحضارة الجديدة ،وهو ما نشاهد اليوم آثاره في مختلف الاقطار

العربية التي اخذت ترفع عقيرتها مطالبة باستقلالها وحرياتها

***

يضطرب الاسلام اليوم في ظاهرتين عظيمتين ، الاولى تتعلق بالجدة الاسلامية الجديدة في الهند ، وهذه يجب تفصيلها فنقول :

ان زعيم الجدة الاسلامية في الهند هو السيد امير علي ، ولامير علي موءلفات قيمة في هذا المعنى هذه خلاصتها :

«ان الوحدة الالهية تظل الاساس الاول في التعاليم الاسلامية الجديدة ، وسبحانه وتعالى عظيم قوي عادل حكيم رحيم ، واما المعجزات فتنكرها المدرسة الهندية الحديثة وهي تسير في ذلك وفاقاً لتعاليم النبي الذي كان لا يرى في غير القرآن معجزة كبرى اما الانسان فحر في اعماله وهو مسوءول عنها

واما الصلاة فتصوير لواجبات الانسان نحو ربه ، وتفسير لما يضطرب في قلبه وفوءاده من خضوع وايمان

واما الكعبة التي يولي المسلمون وجوههم شطرها في صلاتهم فبيت له ، والموطن الذي خرج منه الاسلام ونشأ ، والصيام يعلم المرء كيف يضع حداً لشهواته ورغائبه ، ويمكنه من ان يكون حاكماً آمراً على هذه الشهوات والرغائب لا يسيرها الا بمقدار ، ولا يسمح لها ان تذهب به الى الهلاك

واما الزكاة فمن اركان الاسلام الاساسية ، وليس في العالم دين غير الاسلام جعل الزكاة فرضاً من فروض الايمان ، وهو فرض جميل هذا الذي يستطيع به المرء القادر مساعدة الضعفاء والفقراء من بني قومه

واما الحج فرمز الى الاخوة الاسلامية العامة الشاملة التي تجمع بين مختلف الجماعات وشتى الاقوام

وان سبحانه قد خلق في الناس عقولاً فعليهم ان يميزوا بين الخير والشر ، وكل امرؤ مسؤول عن اعماله في الحياة الآخرة

والاسلام يدعو الى الحب والاخوة ، وهو في ذلك يتفق مع المسيحية من انه دين عام لكل الامم والجماعات

وقد قال احد مسلمي الهند : « ان الاسلام الحاضر وما فيه من بدع وخرافات بعيد عن اسلام محمد النبي ، ان القرآن كتاب يجب ان يكون مناراً لنا في اعمالنا ، وهدى لنا في ما نقوم به من واجبات ولكنه ليس حجر عثرة في سبيل تقدمنا ، لان الاسلام ليس معارضاً للتقدم ولا مخاصماً للحضارة الجديدة الصحيحة المفيدة ، واذا ما حذفت البدع والزيادات من الاسلام فانه دين بسيط ، يضطرب في الايمان بالله ورسوله ويأتمر بما امر به الله بلسان رسوله ، وما سوى ذلك فهو زيادات لا فائدة منها »

***

فاذا انتهينا من بحث الجدة الاسلامية في الهند ، فعلينا ان نعرض لهذه الجدة في مصر ، وما كان للشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني من شأن فيها وسيطرة عليها

لقد قال الشيخ الامام محمد عبده : « ان من يريد معرفة دين من الاديان معرفة حقيقية فعليه ان يرجع الى نشأة هذا الدين الاولى واوامره ونواهيه واحكامه وما يتصل به من تعاليم وغيرها ليستطيع ان يحكم على هذا الدين حكماً بعيداً عن الهوى ، غريباً عن الاغراض »

فاذا ما رجع الانسان والحالة هذه الى نشأة الاسلام الاولى وجد ان هذا الدين بسيط جداً ، وان اوامره ونواهيه واحكامه مقررة في القرآن ، مفسرة في الحديث المتواتر عن اقوام لا يُرتاب فيهم

واذن فالاسلام دين قوامه القرآن والحديث ، والقرآن كتاب الله ، واذن فلا فائدة والحالة هذه من التقعر في البحث ، والتطرف في الآراء والذهاب الى آماد بعيدة في تفسير هده الآيات ، وهي قد كتبت بلسان عربي ، وخوطب بها البشر عامة ، لا فئة خاصة من الناس ، ولا اقلية مثقفة منهم :

« كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »

وقد كان الشيخ الامام محمد عبده يجد في هذه الآية تأييدا لمذهبه هذا من سهولة الدين وبساطة تعاليمه ، وان ما زيد عليه ليس من الدين في شيء ابداً ، وانه دين العالم كله

وفي القرآن الكريم امثلة كثيرة على هذه الدعوة العالمية الى الاسلام ، والواقع ان الحكم على دين من الاديان كما يقول (الغزالي) يجب ان يكون وفاقاً لفوائده ومنافعه للبشر ، وليس من ينكر منافع الدين الاسلامي لمن اعتنقه من بني الانسان ، ولا كيف خلقهم خلقاً جديداً واعزهم بعد ذل ، ودفعهم في سبيل الحضارة والعمران

والشيخ محمد عبده يذهب مروجاً للاسلام وبساطته قائلاً : انه الدين الوحيد الذي يساير الحضارة ولا يناقض العمران ، وان تعاليمه هي هي لن تتبدل ولا تتغير ما تبدلت الايام وتغيرت المذاهب لانها توافق كل جيل ، وتؤيد كل مذهب ، ولانها تنفع الناس في ماضيات الايام وحاضراتها ، وفي مقبلاتها

ثم انه دين العقل ، والشيخ عبده اذا كان ينكر البدع الجديدة الا انه لا يتعرض لاوامر الاسلام الجوهرية بل هو يحاول تفسيرها وفاقاً للعلم الحديث ، وفي تفسيره لها روعة جديدة تدلك على انه وفق في هذا التفسير كل التوفيق ، كما انه يعمل ما وسعه

البيان لكي يوفق بين تعاليم القرآن وبين الفلسفة الحديثة

***

والواقع ان القرآن يساير الفلسفة الحديثة كل المسايرة ويتفق معها كل الاتفاق ، فتعاليمه لا تعارض الحضارة الحديثة ، واوامره لا تناقض المبادىء العلمية ، وقد يعجب القارىء من هذا التزاوج بين الفلسفة والقرآن ولكن حسبك تقديراً لآياته وحسبك فهما لمعنى الفلسفة الحقة لتدرك ان لا تضارب هناك ولا تناقض ، فالقرآن ليس كتاب عقيدة وايمان فحسب ، اذ لا يمكن ان تفرض ايماناً الا اذا جعلته في صورة يقبلها العقل ويطمئن اليها الفكر ، ولا يمكن ان يعتقد الانسان عقيدة جديدة دون مبرر قوي وبراهين واضحة

ولم يكن القرآن اول نزوله الا كتاباً يتناوله العرب بالشك والريبة ويتهمون صاحبه بالجنون والسحر ، فكان من الطبيعي في القرآن ان يشفع اقواله بالبرهان الناصع ويقرنها بالدليل المقنع

والقرآن ليس بكتاب تشريع واخلاق فحسب ، فالتشريع والاخلاق لا بد لهما من فلسفة قوية يقومان عليها ، والمشرع والاخلاقي يجب ان يكونا فيلسوفين قبل كل شيء ، فلا يمكن للقرآن ان يحث على الزهد في الدنيا ان لم يتحدث عن قيمة الحياة الآخرة والخلود والبعث وهذه مسائل فلسفية ، كما انه لا يمكن

للقرآن ان يبشر بالتوحيد ان لم يطرق البحث في الخالق وصفاته وماهيته وهذه مسائل فلسفية ايضاً . فالقرآن قد تعرض لكل بحوث الفلسفة فتكلم في الله وفي صفاته ، وعرض للروح و كنهها ، وبحث في الخلود والبعث ، وصور للانسان مثلاً اعلى يجب ان ينشده واختط له طريقاً يجب ان يسلكه

***

تقرأ ديكارت وافلاطون فتحسب ان للفلسفة اسلوباً واحداً يجب الا يحيد عنه الفيلسوف ، هو اسلوب منطقي مرتب منسجم قد لا تخلو عباراته من نواح لا تستطيع لها فهماً الا بعد عناء كثير ولكنك تخطيء اذا انكرت ان للفلسفة اساليب متنوعة تختلف وعقلية القوم الذين برزت بينهم هذه الفلسفة

وقد يكون للعربي خيال رائع وبديهة قوية وخاطر سريع ولكنه بطبيعة حياته المتنقلة الدقيقة يعجز عن التفكير المنظم والبحوث المنطقية الدقيقة فهذه يجب لها الهدوء والاستقرار والبدوي في نزاع دائم مع طبيعة قاسية تأبى عليه الا التمرد فيستغرق هذا النزاع كل وقته . ومن هنا نستطيع ان نفهم اسلوب القرآن في معالجته للمشاكل الفلسفية المعقدة ، فللقرآن اسلوب خاص به يتفق وبدواً يعيشون في الصحراء ، بسيطي التفكير ، ساذجي المنطق فهو يبهرهم ببديع الكلم وحسن اللفظ دون ان يثقلهم بمناقشات

علمية او نظريات غريبة معقدة

والقرآن كثيراً ما يلجأ الى التصوير المادي والامثلة يضربها لتقرب من الاذهان حقائق عميقة ، على ان هذه الحقائق التي اتى بها القرآن لم تكن جديدة كل الجدة على عرب الجاهلية ، بل هي خلاصة ما كانوا يحسون به ويفكرون فيه ، وهي اروع ما كانوا يتناقلونه ويتناجون به ، وهي آخر ما وصلوا اليه من رقي فكري نتيجة لامتزاجهم باليهود والنصارى ونتيجة لاتساع افقهم العقلي بهذا الامتزاج ، واخيراً لاستقرارهم نوعاً ما في بقاع مكة والمدينة .

* * *

ان وحدانية الله هي جوهر البحوث الاسلامية ومحور فلسفة القرآن ، فالارض والسموات لا يمكن ان يكون لهما آلهان اوثلاثة لانه «لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا» وتتحقق الوحدانية في ان الله وحده هو الخالق المتصرف في شؤون هذا الكون ، وما الملائكة والجن والبشر عامة ورسلاً وانبياء الا عبيداً له ، يقول يوم يفنيهم : لمن الملك اليوم ؟ فيجاب لله الواحد القهار .

واما كنه الله وحقيقته فهذا ما يقول عنه القرآن ان العقل البشري اعجز من ان يعقله ويدركه فهو «الواحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد» ، ونحن مضطرون الى ان

نؤمن بالله ونركن اليه ونوقن بوجوده دون ان ندرك حقيقة هذا الوجود، فهو «الله الذي لا اله الا هو خالق كل شيء، لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير»

وليس هذا الايمان مجرد عقيدة عمياء، بل هو عقيدة يدعمها العقل والنظر، اذ لا يمكن تصور وجود دون موجد، ولا يمكن ان يكون هذا النظام الدقيق الذي يجري على سنته الكون وهذه الحركة الدائمة المستمرة نتيجة الصدف ودواعي الحال، بل هي من صنع منظم خالق قادر «افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت» «قل لمن ما في السموات وما في الارض ؟» وفي هذا كله دليل على خلق الله لكل شيء

واقل تفكير فيما يحيط بنا سينتهي الى الاقرار بوجود الله، فهذه ارض هامدة مجدبة ولكن الماء ينزل عليها فتهتز وتربي وتنبت من كل زوج بهيج، وهذا ماء مهين يخرج من بين الصلب والترائب فيتحول الى نطفة ثم الى علقة ثم الى مضغة مخلقة وغير مخلقة ثم يخرج طفلاً جميل التكوين، ذلك بان الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير

واذا كنا لا نعرف ماهية الله ففي استطاعتنا ان نعرف صفاته فصفات الخالق هي اكمل صفات المخلوق وارقى ما في صفات

البشر ، فاذا كان للبشر حول وقوة « فربك المتين ذو القوة ، ويد الله فوق ايديهم » واذا كان للانسان ذكاء « فان الله خير الماكرين » واذا كان في النفس كرم فان (ربك الاكرم)

وصفات الله ايضاً تتنزه عن نقائص الموجودات ، فالمخلوقات كثيرة متعددة ومن طبيعة الكثرة التنابذ والتضاد ولذا فالله واحد لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . والمخلوقات تتوالد وتتناسل وفي هذا التوالد منقصة لعدم تحقق وجود المولود الا بوجود الوالد ، فالله اذن واحد لم يلد ولم يولد ...

وكثير غير هذا يقدمه لك القرآن في اسلوب سهل ممتنع وتشبيه بديع وامثلة محسوسة وليس معنى هذا ان الفلسفة المعقدة تعطيك فكرة عن الله اكثر من فلسفة القرآن السهلة ، لا فانك لو لجأت الى اشد الفلسفة تعقيداً او اكثرها تعمقاً لخرجت منها بافكار عديدة عن الله ونظريات تملأ جانب الغرور من نفسك ولكنها في نهايتها لا تصل الى اكثر مما وصل اليه القرآن في سهولته وبلاغته ، فليس بين الفلسفات فلسفة واحدة ادعت معرفتها كنه الله او تصورت كيفية وجوده

***

(أو ليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم ؟ بلى ! انما امره اذا أراد شيئاً ان يقول له كن فيكون)

فالله هو خالق هذا الكون العظيم بما فيه من أجرام ونبات وحيوان وهذه المخلوقات كلها كلمة من كلمات الله . ولا تسل بعد هذا عما اذا كان أصل الوجود مادة او روحاً ، فليست المادة والروح والملائكة والبشر في نظر القرآن الا مظهراً من مظاهر ارادة الله (فانما امره اذا اراد شيئاً ان يقول له كن فيكون) ، (قال للسموات والارض ائتيا طوعاً او كرهاً قالتا أتينا طائعين)

وهذه الارادة الالهية العظمى نملك جزءاً منها نحن البشر ، فارادة انسانية واحدة تستطيع باخلاصها وقوتها وشدة ايمانها ان توجه العالم باسره وجهة جديدة ، وكلمة واحدة من قائد جيش تحرك الالوف الى حيث يريد ، وهذه الارادة الانسانية مهما سمت فهي ناقصة ولكنها كاملة في الله ، ومن دواعي كمالها ان تكون ثابتة حكيمة لا يعتورها تغيير ولا تبديل

***

وان كانت المخلوقات قد صدرت عن الله فهي لا شك متصلة به باعتبارها عنوان ارادته ومظهر مشيئته ، فهو لم يخلقها من شيء سابق ولم يأت بها من مادة معينة وانما شاء وجودها فوجدت ، ومنفصلة عنه باعتبار وجودها المستقل عن وجود الله وباعتبار قبولها للفناء والتطور بينما الله خالد لا يتغير ، يحركها ويسيرها كيف شاء في ادارة ثابتة (فلا الشمس ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل

سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

وعند الله مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ، وعلمه يهبط الى الجزئيات كما يصعد الى الكليات «فيعلم ما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الا في كتاب مبين » ونحن لا نعرف حقيقة هذا العلم ، فهو علم لا يعلمه الا الله وحده ولكن لنا فقط ان نتصوره وان تقبله عقولنا اذ ليس غريباً على الخالق الذي سوى نفسك ان يعرف خلجاتها « فلقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد »

***

« ولقد خلقنا الانسان من صلصال كالفخار »

فالانسان مخلوق من طين ، من عناصر الارض التي يعيش فوقها ، ثم نفخ الله فيه نسمة من روحه فصار بشراً سوياً ، وكان من طبيعة هذا التركيب ان يكون الانسان خليطاً من الشهوات والحكمة ، خليطاً من المادة والروح مزيجاً من الشر والخير ، فالقرآن يعطيك صورتين متناقضتين عن الانسان : فهو حقير مخلوق من ماء مهين في احسن تقويم ثم هو مردود الى اسفل سافلين . هذه هي الصورة الاولى ، واما الثانية فهي ان الله يأمر الملائكة ان تسجد لهذه الحقارة ، والقرآن

يفسر هذا التضارب بان الانسان حقير في مادته وبشهواته عظيم في روحانيته

ومرتبة الانسان تسمو مرتبة الملائكة لو انيح له التحكم في رغبته والتوفيق الى الخير ، وفي سبيل هذا التحكم قد الهمه الله فجوره وتقواه وزوده بعقل يبين له الرشد من الغي ويميز الحق من الباطل ، وقد تتحكم فينا العادة فتغطي على هذا الالهام ، او تغلنا تقاليد الآباء والاجداد فننسى عقولنا ، ولذا فكثيراً ما يعجب لنا القرآن ويهيب بنا ان نرجع الى عقولنا ونتخلص من قيودنا قائلاً :
« قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ، قد فصلنا الآيات لعلهم يفقهون »
وفي هذا التخلص من قيودنا والرجوع الى عقولنا سعادتنا وهناؤنا ، اذ في الارتفاع بالنفس الانسانية وتحكيم العقل وتنزيهه عن الشهوات المهلكة تحقيق للغاية التي خلقنا الله لاجلها ، فلو عقلنا لفهمنا ان الحياة الدنيا متاع الغرور وان الباقيات الصالحات خير وابقى .

وهكذا يعالج القرآن هذه المشكلة المعقدة في تلك السهولة والبساطة ، فهو يدعوك الى ان تأخذ بنصيبك من الحياة ويحثك على السعي في مناكب الدنيا والاكل من رزقها ولكنه ينصحك الا تبالغ في هذا وتتهالك عليه ، ويحاول ان يسمو بك ويعينك على الارتفاع من حضيض الشهوة بعبادة الله

وذكر اسمه والصلاة له ، فان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وفي التأمل في خلقه والتفكر في ملكوته عزة الانسان وعظمته ، وفي التوجه اليه بالغداة والعشي ايقاظ للجانب الروحي منه وتنبيه له.

وهكذا ترمي ضروب العبادة من صوم وصلاة وحج الى الاقلال من تحكم الجسد وفك الروح من اساره

ويقول القرآن للذين يأبون هذه الحقيقة « من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها ، ومن كفر فعليه كفره ، وماربك بظلام للعبيد » ويلفتهم الى ان ما سيصيبونه من مال وجاه ظل زائل لا يدوم ولكنهم اذ يتهالكون عليه يفقدون اعذب ما في الانسانية من صفاء روح وطمأنينة نفس ، وستجابههم هذه الحقيقة في الحياة الاخرى فيتحرقون حسرة ويقولون ياليتنا كنا ترابًا ، ويتمنون قائلين ربنا ارجعنا نعمل صالحًا . . .

والحياة الاخرى امر لا شك فيه ، اذ لا يمكن ان يخلق الانسان عبثًا ، وليس بمعقول ان ينتهي هذا النشاط وتلك الحركة الى تراب « وما خلقناكم عبثًا انما الينا مرجعكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . »

***

يذكر القرآن ان جميع بني آدم عبيد الله ، ويقرر هذه

العبودية بوضوح لا يتطرق اليه شك ، فما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، ولن يستنكف المسيح ان يكون عبداً لله ، وفي هذه العبودية التي يمتلىء بها القرآن مصدر جديد لعمقه وعظمته ، فمعنى عبودية البشر لله مساواتهم المطلقة لبعضهم ، وبذا يلغي القرآن في كلمة صغيرة كل الفروق الانسانية ، فليس هناك شريف وحقير ولا عبد ولا سيد بل الجميع عبيـد الله ، و كلهم متساوون في هذه العبودية ، وانمـا رفع الله بعضنا فوق بعض درجات ليتخذ بعضنا بعضاً سخرياً لعمار الدنيا وتعمير الكون، ولا فضل لاحد على الآخر الا بالتقوى « فان اكرمكم عند الله اتقاكم » على ان هذه المساواة ليست مساواة مطلقة مجردة من كل قيد وشرط اذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، ولا تستوي الظلمات والنور ولا الظل ولا الحرور ..

وقد دعا القرآن الى الاخوة والتسامح « فانما المؤمنون اخوة» وهذه الاخوة تمتد الى الانسانية كلها « فان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون»

واضاف القرآن — في علاقة البشر ببعضهم — الى التسامح فضيلة التعاون ورفع من شأنها حتى جعلها ركناً من اركان الاسلام فالزكاة فريضة واجبة يساعد فيها الغني الفقير

وبهذا يصور القرآن للانسان مثلاً اعلى في طوقه ان يحققه : في الاخوة وحب الغير والتعاون والعفو والغفران ، ولكن هذا المثل الاعلى لا يدفع الانسان الى الضعف والمسكنة بل « من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » ومن بدأك بشر فجاوبه بشر ان استطعت

وبهذا كله كان القرآن اقرب الكتب السماوية الى فهم الانسانية ، يزيدها قوة وعظمة على شريطة الا يدفعها ذلك الى الغرور فينسيها المساكين ويدفع بها الى احضان الشهوات

***

والواقع اننا اليوم امام نهضة اسلامية جديدة ، من حظ الحضارة المعاصرة ان تؤيدها كل التأييد وان تغذيها ما كان الى ذلك سبيل ، فان في عودة الاسلام الى حضارته السالفة وعزه الغابر ثروة انسانية جديدة تفيض على العالم الحديث جلالاً وجدة وعمقاً وحياة



— ٨ —

الاسلام واوربا

تضطرب النهضة الإسلامية المعاصرة في ثلاثة مظاهر والوان، وهي مظاهر ليست بنت ساعتها، ولا نشأت فجأة واستطارت بين الناس دفعة واحدة، وانما هي عمل سنوات، وتفكير جماعات عديدة، رأت في هذه الالوان الجديدة مظهراً جديداً من مظاهر الجدة المعاصرة، والتقدم الحاضر فراحت توطد لها الامر، وتمكن لها من الحياة والذيوع والانتشار

نشأت حركة الاصلاح في الاسلام في القرن التاسع عشر لما ضاق بعض رجالات الاسلام ذرعاً بما يتهم به الاجانب الدين الاسلامي من انه السبب الوحيد في ضعف الامم الاسلامية وعدم استطاعتها تقدماً ونجاحاً، فراحوا يعملون لكي يكون للاسلام ما يستحقه من مركز عالمي في الحضارات الحاضرة يريدون ان يعودوا بالاسلام الي سابقات اعوامه وماضيات ايامه

وفكر آخرون في القوة التي تمكنها وتغذيها وحدة اسلامية عامة تجمع بين المسلمين في مشارق الارض ومغاربها لا فرق في

ذلك بين عربيهم وعجميهم وقريبهم وبعيدهم ، ودون ما نظر الى الاغراض السياسية والمنازع الخاصة فنشأت عندئذ فكرة الوحدة الاسلامية

واخيراً ظهرت الفكرة الاستقلالية بعد الحرب ظهوراً قوياً في الهند والمغرب والبلاد العربية ، وقد اخذت كل هذه الامم الاسلامية تنفر الى حرياتها وتطالب باستقلالها ، وتصرف للوصول الى ذلك جهوداً عظيمة وتضحيات كثيرة

ويظهر اليوم ان كل هذه القوى قد اتحدت للوصول الى الغاية الفردة والمثل الاعلى الذي ينشده كل مصر اسلامي ومن الحق ان ينظر الى هذه الجهود الجبارة بعين العناية ، وان يترك لها المجال للوصول الى اغراضها ، لتقف على الاقل حائلاً بين البولشفية المنكرة ، ولتمنع هذه من غزو الحضارة المعاصرة والعمل على هدمها ومحقها ، لان في اتحاد الاسلام والبلشفية خطراً واي خطر ، ومصيبة قد لا يستطيع المرء التكهن بنتائجها ومصايرها

ولكن الاسلام يقف حتى اليوم حائلاً بين البولشفية وبين ذيوعها وانتشارها ، وهو في ذلك يدافع عن المسيحية ويدافع عن الاسلام

ولرب سائل يقول « ماذا يكون مصير الاسلام في المستقبل ؟ » وقد اجاب على هذا السؤال كاتب معروف بسؤال آخر

فقال : ماذا يكون مصير اوربا ؟

والواقع انه لو تعود الديموقراطية الاوربية الحاضرة الى نفسها — اذا كان الى ذلك سبيل — وتعلم ان الفائدة من الاتفاق مع الاسلام ومساعدتـه هي اعظم بكثير من استعباده والسيطرة عليه والوقوف بوجهه . وان اسباب التفاهم والاتفاق بينهما اعظم بكثير ايضاً من اسباب الخلاف والشقاق، لكان بامكان المرء ان يحكم على المستقبل حكماً مليئاً بالاطمئنان والايمان والرجاء

ولكن الواقع غير ذلك ، وسوء التفاهم بـين الاسلام واوربا يزداد قوة ، ويضطرب خصومة، ويحتدم ناراً ، وهي حالة مؤسفة، لانه ليس من مصلحة الحضارة الاوربية القائمة ان ترى الى جانبها هذه القوة الاسلامية الغاضبة الناقمة الصاخبة تتهددها بالخطر المداهم والشر المستطير

واذا تمكنت اوربا من الحياة والاطمئنان الى مصايرها اعواماً عديدة ايضاً ، فهل يكون الاسلام في المستقبل والحالة هذه خطراً داهماً يهدد اوربا ويهدد نفسه بالانقراض والفناء ، ام انه يكون لدى الامم الغربية في افريقيا وغير افريقيا داعية تقدم واصلاح كما كان في ماضيات ايامه ؟!

هذا سؤال يصعب الجواب عليه ، لتعقده وتعلقه بكثير من المسائل والموضوعات الخطيرة والسياسة الحاضرة ، ولكن الواقع

هو ان الاسلام اليوم امام نهضة عالمية خطيرة ، وان من الحق والحكمة والمصلحة الانفاق معه ومساعدته على اخذ مكانه الغابر في الحضارة المعاصرة ، فان الاسلام قوة لا يستهان بها والشعوب الاسلامية تكون عضداً عظيماً للفلسفة العلمية المعاصرة ، تغذيها وتقويها وتدفعها الى الابداع والخلود

انتهى الكتاب



تعليقات

١

اثر القرآن

لقد تبسطنا في كتابنا هذا باقوال بعض مشاهير كتاب الغرب في محمد والاسلام ، وغايتنا من ذلك ان نقيم الادلة ، على اثر الاسلام ، حتى في نفوس كتاب الغرب ومشاهير فلاسفة المسيحية ، فلا يقول قائل انهم قالوا ما قالوه في الاسلام متأثرين بعقيدتهم واهوائهم ، خصوصاً وانهم من العلماء المنصفين الذين نشدوا الحق ، وبحثوا عن الحكمة جهد طاقتهم ، وقد كانت خلاصة آرائهم وزبدة اقوالهم ان محمداً كان صادقاً وكان معتقداً بان الله قد بعثه لهداية قومه ، وارشاد سائر البشر الى الدين الحق ، وكان مقتنعاً ان الله تعالى يوحي اليه ، وانه لم يقل شيئاً الا وهو مقتنع به ، وهذا هو الرأي السائد اليوم بين العلماء المحققين من اهل اوربة ، ولم يبق فيهم من يقيم وزنا لتلك المطاعن التي كان احبارهم ورهبانهم واعداء الدين الاسلامي منهم ، يوجهونها الى رسول الله ، ويطبعون بها ناشئتهم ويجعلونها مداراً لدعايتهم

ولكن الامر الذي لا يزال يحير العقول هو تقدم الاسلام الخطير ، وسرعة نموه وتبسطه ، وقد بحث (ماكس مايرهوف) هذه الظاهرة فقال :

« يكاد يكون مستحيلا ان نفهم كيف ان اعراباً منقسمين الى عشائر ، ليس عندهم العدد والاعتدة اللازمة يهزمون في مثل هذا الوقت القصير جيوش الرومان والفرس الذين كانوا يفوقونهم مراراً في الاعداد والعتاد ، وكانوا

يقاتلونهم وهم كتائب منظمة

....

اما موءلفا (تاريخ العام) دموبين وبلاتونوف فيذهبان الى ان القرآن هو الذي اثار هذه العاصفة التي ذهبت بالفرس والرومان ، وان قراء القرآن الاولون هم الذين بثباتهم المتواصل بنوا الاسلام الاول الذي لم تطرأ عليه الموءثرات الخارجية ، والمجادلات الكلامية وهو الاسلام القرآني الصرف

وهذا القول حق ، فان هذه العصابات الاسلامية الاولى التي محضت الاسلام خلوصاً لاحد له ، وصرفت معظم حياتها للعمل في سبيل الله ، هي التي بجرأتها ، وروحها وبسالتها وتضحيتها مكنت هذه الفتوحات الهائلة ان تسير سبيلها في التاريخ باحرف من نار

والواقع ان الاسلام لم ينتشر الا بالقرآن وعمارة الصدور به ، الى ان بلغ قراوءه من القوة المعنوية الدرجة القصوى التي مكنتهم من نواصي الامم ، وهذه القوة المعنوية هي الاصل ، وهي التي بدونها لا تنهض امة ، وما القوة المادية ، الا تبع لها ، وما يقال عن غرام العرب بالقتال وحب البدو للغزو ، وغرامهم بالغنائم ، فهو تفسير في غير محله ، وانما امكنت هذه الفتوحات الخارقة للعادة ، بكلام منزل هو خارق للعادة ، وبقوة معنوية جارفة احدثها في النفوس ولقد كان العرب اهل حرب من قديم الزمان ، وكان الاعراب من المغرمين بالنهب والكسب ، من اعالي ايام الجاهلية ، فلماذا لم يفتحوا العالم الا بعد بعثة محمد ونزول القرآن ؟

....

ويقول (ولز) بهذا المعنى : اذا كان القاريء يتخيل ان موجة الاسلام قد غزت بهذا الفيض الذي فاضته بعض مدنيات شريفة فارسية او رومانية او يونانية او مصرية ، فيجب ان يرجع عن خياله هذا ، لان الاسلام قد ساد لانه كان افضل نظام اجتماعي وسياسي تمخضت به الاعصر ، وان الاسلام قد

ساد لانه في كل مكان وجد امماً استولى عليها الخمول ، وكان فاشياً فيها الظلم والنهب والعسف ، وكانت بدون تهذيب ولا ترتيب ، فلما جاءها الاسلام لما يجد الاحكومات مستبدة مستأثرة منقطعة الرابطة بينها وبين رعاياها ، فادخل الاسلام في اعمال الخلق اوسع فكرة سياسية ، ومد الى البشرية يد المعونة ، ولم يبدأ الاسلام بالانحطاط الا عندما بدأت البشرية تشك في صدق القائمين بتمثيل هذه الديانة !!

يريد ولزان يقول : ان الاسلام بريء مما عمله المسلمون ، الذين لم يحسنوا تمثيله ...



٢

مصاير الاسلام

وصف الكاتب الاميركي (استودارد) الاسلام والعالم الاسلامي في اواخر القرن الثامن عشر فقال :

« في القرن الثامن عشر كان العالم الاسلامي قد بلغ من التضعضع اعظم مبلغ ، ومن التدني والانحطاط اعمق دركة ، فاربدّ جوه ، وطبقت الظلمة كل صقع من اصقاعه ، ومصر من امصاره ، وانتشر فيه فساد الاخلاق والاداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي ، واستغرقت الامم الاسلامية في اتباع الاهواء والشهوات ، وماتت الفضيلة في الناس وساد الجهل ، وانقلبت الحكومات الاسلامية الى مطايا استبداد وفوضى واغتيال

واما الدين فقد غشيته غاشية سوداء ، فالبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخلت المساجد من ارباب الصلوات ، وكثر عديد الادعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان الى مكان يحملون في اعناقهم التمائم والتعاويز والسبحات ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ، ويرغبونهم في الحج الى قبور الاولياء ، ويزينون للناس التماس

الشفاعة من دفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يشرب الخمر والافيون في كل مكان ، وانتشرت الرذائل وهتكت ستر الحرمات على غير خشية ولا استحياء ، ونال مكة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الاسلام ، فصار الحج المقدس الذي فرضه النبي على من استطاعه ضربا من المستهزآت ، وعلى الجملة فقد بُدل المسلمون غير المسلمين ، وهبطوا مهبطاً بعيدالقرار ، فلو عاد صاحب الرسالة الى الارض في ذلك العصر ورأى ما كان يدهى الاسلام لغضب واطلق اللعنة على من استحقها من المسلمين ، كما يلعن المرتدون وعبدة الاوثان »

ونظن ان الكاتب الاميركي قد وفق كل التوفيق في وصف حال الاسلام في القرن الثامن والتاسع عشر ، واما اليوم فنعتقد بحق ان الحالة قد تبدلت ، وان المسلمين اخذوا يعودون الى فضائل دينهم ، ويستمعون لصرخة نبيهم ، وانهم غير مسلمي الامس القريب حتما

. . .

ويتحدث الكاتب الاميركي عن روح الاسلام فيقول : من يقارن بين الشريعتين الاسلامية والنصرانية من جميع وجوههما ير ان روح الاول اليوم ، وروح الاخرى بالامس ، انما هي روح واحدة ، واننظر في شيء من هذا ، وهو تحريم الربا في الشريعة

الاسلامية تحريماً لو ابيح لكان من شأنه القضاء على التجارة والصناعة باعتبار معنييهما اليوم ، ويقول بعض النقدة ان تحريم الربا معناه جمود الاسلام ، ولو اعتدلوا لعرفوا ان النصرانية حرمت الربا ايضاً ، وانها اتهمت بالهرطقة والكفر من اقدم على التداين خصوصاً (اللمبرديين) الذين اضطهدوا شر اضطهاد لخطتهم هذه ، ولننظر الى شيء آخر : يقول متعصبة النقدة ، من المسيحيين ، « ان الاسلام يجافي الحرية الفكرية ، ويكره استكناه الحقائق العلمية الطبيعية ، فلعمر الحق لو شاء الاسلام ان يحتج على النصرانية ويرد اليها افتراثها ، لكان لديه حجة ارفع ، وبرهان اقطع ، مما هو مدون في صحف التاريخ النصراني من ان (غاليلو) قد جلد وعذب واذيق الهول اشكالاً ، منذ ثلاثمائة سنة بحضرة المجلس (البابوي) ليرتد عن تعطيله و كفره التي جاهر بها يومئذ من ان الارض تدور حول الشمس . . .

أيليق بنا بعد هذا ان نتعامى عما قاله محمد في شأن العلم ؟ وان ننكر تكريمه له كل التكريم ، وهذه كلماته البليغة ما زالت شاهداً على ذلك ، والى القاريء بعضها :

« اطلبوا العلم ولو في الصين ، فان طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »

« اطلب العلم من المهد الى اللحد »

«لان تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من ان تصلي مائة ركعة»
«يوزن يوم القيامة مداد العلماء بمداد الشهداء»
«العلماء ورثة الانبياء .»

....

وقال السيد (خدا بخش) وهو مفكر هندي كبير «ما كان النبي يبغض شيئاً بغضه للشرائع والقوانين الجامدة التي تقيد العقل فتقوده صاغراً اعمى ، وليس القرآن الكريم غير هدى للمؤمنين ، وليس عثرة في سبيل ترقي المجتمع والآداب والشرائع والقوانين والمدارك العقلية ، ولعمرى ان هذا الاسلام اليوم ليس هو الاسلام الذي اتى به صاحب الرسالة ، فان الاسلام الذي جاء به النبي بريء من هذه السلاسل المؤلفة من حلقات الوظائف والمناصب الدينية وعار عن هذا التعصب القاتل والجهل الشديد والاوهام والاباطيل الكفرية ... الى ان يقول : هل الاسلام عدو للترقي والتقدم ؟ اني اعوذ بالله من هذا القول وقائله ، لانه متى وضع الاسلام في البوتقة واخرج منه ما علق به من جميع هذه الاباطيل الخداعة ، كان ذلك الدين الساذج الحلو السائغ ، فالاسلام على اصله ووصفه انما هو ركنان لا ثالث لهما : توحيد الله تعالى ، والايمان بان محمداً هو رسول الله ، وما عدا ذلك فليس من الاسلام

فهرس الكتاب

وقع خطأ مطبعي في صفحة ١٢ سطر ٤ من هذا الكتاب ، فنرجو الانتباه الى ان كلمة (يوماً) يجب ان تقرأ (يوم)